

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران - السانية -



قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب، اللغات والفنون

الخصائص السردية في مرحلة ابن حمادوش الجزائري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية وآدابها ضمن مشروع:
الأدب الرحلي المغربي

تحت إشراف الأستاذ:

الدكتور سكران عبد القادر

إعداد الطالبة:

مقدم فاطمة

أعضاء لجنة المناقشة

- | | |
|----------------|-----------------------|
| رئيساً | • أ.د. مختار حبار |
| مشرفاً ومقرراً | • د. عبد القادر سكران |
| عضواً مناقشاً | • أ.د. الشيخ بوقربة |
| عضواً مناقشاً | • د. عبد القادر بوعزة |

السنة الجامعية: 2010-2011

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى التي وضعت الجنة تحت قدميها وإلى من امرت شفت أول مرشفة
من حليبها إلى منبع الحنان والعطاء ورمز التضحية والوفاء، إلى التي لو طلبت عيوني ما توانيت،
إلى التي سأعيش من أجل إسعادها إليك يا أغلى حبيبة أُمي - شفاها الله وأطال عمرها - إلى
دعامي في الحياة والدي العزيز حفظه الله، وإلى من لا تكتمل سعادتي من دونهم إخوتي
وبالأخص محمد والجباللي، بجدة وعائشة وخيرة والنزهة، إلى براعم العائلة ياسين عبد النور
والهام فاطمة الزهراء، وإلى كل الأهل والأقارب .

إلى كل من عشت معهن أجمل ذكريات عمري ومن أكن لهن صدق الوفاء
والحبة، فكن نعم الرفيقات فائزة، نعمة وجميلة .

إلى من حرم على نفسه الراحة لحظة في سبيل تعلم ما ينفع ويفيد في الانتقال
من ظلام الجهل إلى نور العلم .

شكر وعرفان

الحمد لله حمداً متوالياً وإن تضاعل دون حقه حمد المحامدين أحمد الله تعالى حمد المقر
بالعجز عن شكر نعمته، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد جمال الكون و زهرته
وكمال الخلق وخلاصه، وعلى إخوانه من الرسل والأنبياء مصابيح الهدى، وعلى من نجا
سبيلهم واهتدى بهديهم، أما بعد :

فأتقدم بالشكر البالغ الذي لا تسعه الكلمات ولا تسطره الأقلام، ولا تملؤه
المعاني، يبقى ما بقيت ذكرى هذا العمل ترن بذاكرتي، أتقدم به إلى أستاذي المحترم
"سكران عبد القادر" على ما قدمه لي من توجيه مرشيد ونصائح ثمينة، كما أود أن
أشكر كل الذين ساعدوني من قريب أو من بعيد، فشكراً جزيلاً، وأدعو الله
أن ييسر عليهم كل عسر في الحياة الدنيا، ويثقل ميزانهم حسنات يوم العسر. "آمين".
كما أتقدم أيضاً بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة.

مُقَلَّمَاتُ

مقدمة

عرفت المجتمعات العربية عدة فنون مرتبطة بتراثها الأدبي المختلف، كالقصة والرواية والمسرحية والشعر، فإذا قلنا إن فنًا من هذه الفنون يعرض في مضمونه إلى ناحية من نواحي الحياة فإننا نقول أيضًا أن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي في مجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة.

لذلك تمتاز الرحلات - بصفة عامة - بغنى موضوعاتها من علم وأدب وخرافة وأسطورة، فالرحلة - إذن - نمط خاص من أنماط القول الأدبي، ولعله لا يبلغ درجة الفن القائم بذاته كفن القصة والرواية والمسرحية مثلاً، ففيه توجد أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها، لكن دون احترام الرحالة للضوابط والمعايير التي يضبطها. فالرحالة وهو ينتقل من مكان إلى آخر أثناء رحلته، يهتم في نفس الوقت بتسجيل ملاحظاته عن مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها عياناً أو يسمعها من الآخرين، كما نجده أيضاً يعنى بالتفاصيل والجزيئات ويتحرى الدقة والصدق في نقل معلوماته وأخباره، فيعطينا بذلك صورة واضحة عن البلد الذي يزوره، من خلال ما يقدمه من معارف جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وغيرها، ومن هنا تقوم الرحلة على تقديم لوحات مختلفة من الحياة الإنسانية، تتشعب فيها الأحداث وتتعدد فيها الشخصيات والأماكن، والنباتات والحيوانات، فهي (الرحلة) مصدر هام للباحثين كل حسب اختصاصه.

ونظرًا لأهمية هذه الرحلات من جهة، ونظرًا لكوني أبحث في مشروع الأدب الرحلي المغاربي من جهة أخرى، فقد وجهت بحثي لدراسة الخصائص السردية لرحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، قصد التعرف أكثر على هذه الرحلة وما تحتويه من معلومات وأخبار عن شخص مؤلفها وعصره ومعاصريه.

ومنه تراءت لي مجموعة من الإشكالات أهمها:

ما هو مفهوم الرحلة بدايةً وتطوراً؟ ومن هو عبد الرزاق بن حمادوش؟ وما هي أهم مميزات شخصيته؟ وكيف كان عصره؟ وما مضمون رحلته؟ وما هي أهم الموضوعات التي تناولها في الرحلة؟ وما هي أهم الخصائص السردية التي تميزت بها؟ للإجابة عن كل هذه التساؤلات وغيرها اقتضت الضرورة تقسيم هذا البحث على النحو الآتي:

مقدمة

مدخل: إلى الحياة الثقافية في عصر عبد الرزاق بن حمادوش، وتناولت فيه:

- مفهوم الرحلة بدايةً وتطوراً.

- ابن حمادوش وعصره.

- مضمون الرحلة.

الفصل الأول: تطور فكر ابن حمادوش في الرحلة، والذي تضمن الإشارة إلى:

- الفكر الديني.

- الفكر العلمي.

- الفكر التجاري.

الفصل الثاني : موضوعات الرحلة، وقد عرضت فيه:

- فنون النشر.
- أغراض الشعر.

الفصل الثالث: لغة السرد، وجاء فيه:

- طريقة الحكى.
- الوصف.
- الحوار.
- الفصحى والعامية.

خاتمة: تتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الفصول الثلاثة.

ولقد واجهتني في أثناء دراستي لهذا الموضوع بعض الصعوبات تكمن أساساً في قلة المراجع التي تتناول أدب الرحلة بالدراسة، وخصوصاً التي تتناول رحلة ابن حمادوش إلا أنه بفضل توجيهات أستاذي الفاضل استطعت اجتياز ذلك، والحمد لله. وفي الأخير أتمنى أن أكون قد أحسنت العمل، فأنا لا أدعي أنني أحطت بالموضوع من كل جوانبه بل التقصير وارد لا محالة.

مدخل

مدخل إلى الحياة الثقافية في عصر عبد الرزاق بن حمادوش

1- مفهوم الرحلة بدايةً وتطوراً

2- ابن حمادوش وعصره

3- مضمون الرحلة

1- مفهوم الرحلة بدايةً وتطوراً:

عرف الإنسان الرحلة والترحال والتنقل بفطرته التي جبل عليها منذ بدء الخليقة أي منذ أن هبط آدم وحواء إلى الأرض ليعبدوا الله وليُعمروها بأولادهما، وينتشروا فيها سعيًا للبحث عن مصادر الرزق لهم وحيواناتهم، "والرحلة في هذا المفهوم أمر طبيعي يتعلق بحياة الأفراد والأمم"⁽¹⁾، وهكذا اختلفت بواعث الرحالة، فمنهم من كان يسافر بحثًا عن الرزق كما ذكرنا أو لتحصيل العلم، ولاكتساب المزيد من الخبرات أو للترفيه أو بغية التعرف على البلدان المجاورة أو البعيدة، أو لاكتساب المزيد من العزة عند الأهل، أو للاستشفاء في حالة المرض.

لم تظهر كتابة الرحلة في الأدب العربي - فيما أعلم - إلا بعد الهجرة النبوية والفتوحات الإسلامية، وازدهار الحضارة العربية وثقافتها "وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات في ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا في هذه الفتوح، وخلقت ظروفًا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث"⁽²⁾، للتعرف التام على هذه البلدان، وبالتالي ضبط شؤونها السياسية والإدارية والمالية وغيرها.

وبذلك أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال التي تخلفهم، إذ أسهمت كتاباتهم لأدب الرحلة في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية وظروف المعيشة فيها، وألقوا الضوء على تاريخ هذه البلاد وأفكار سكانها وعادات قد تختلف وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة، "فاطلعوا خلال رحلاتهم على أحوال البلاد وشاهدوا حياة أهلها وعاداتهم، الأخرى من خلال كتاباتهم، فحاولوا إثارة الاهتمام بها لتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها، فظهرت كتابات

1- د. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص6، ط2، دار الأندلس، لبنان، 1983.

2- م، ن، ص10.

تتضمن رحلات قام بها رحالة عرب كرحلة ابن جبير، وابن خلدون، والمقري...، ولقد جاب بعض الرحالة العرب بلاداً عربية بعيدة جداً عن بلادهم، بل وصل بعضهم إلى الصين والهند كرحلة ابن بطوطة، وأبي الريحان محمد البيروني⁽¹⁾.

ومن هنا فإن "فن الرحلة لون أدبي، ذو طابع قصصي فيه عموماً فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب، والجغرافي، وعالم الاجتماع وغيرهم، كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها! حكماً ومواطنين، فهو وصف في النهاية لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة، عبر مسار رحلته، وفي احتكاكه بالمحيط، يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها"⁽²⁾.

ولعل أدب الرحلة بمفهومه البسيط هو فن التعبير عن مشاعر في نفس الأديب المغترب، تجاه البلد الأجنبي الذي حل به، فيتحدث الرحالة عن مكانه فيصف لباسهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويتحدث أيضاً عن الخلفية السياسية والثقافية لذلك البلد كما يصف الأحداث التي عاشها، والمواقف التي تأثر بها، والهموم التي عانى منها في ذلك البلد الأجنبي طالت مدة إقامته فيه أم قصرت، فيعبر الأديب الرحالة عن كل ذلك بأسلوب أدبي شيق يغري القارئ لمواصلة القراءة من أول وآخر سطر دون ملل أو كلل.

ولهذا "فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصر، فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في الوقت نفسه ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها أو

1- يراجع حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، م، س، ص 12، 13، 14.

2- د. عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، ص 97، د/ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ماي 1995.

يسمونها أحياناً وينقلها في رحلته، ولا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون أيضاً في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغيرة التي يخضعون لها⁽¹⁾.

برزت الرحلة كفن مدون ابتداءً من القرن الثالث الهجري فهي "كفن مدون نوع أدبي أصيل في تراثنا الحضاري بعد خروج المسلمين من مراحل الفتوح إلى مرحلة الاستقرار"⁽²⁾، فكان من بين الأعمال الأولى في هذا القرن "عمل اليعقوبي"⁽³⁾... صاحب كتاب (البلدان) الذي عبّر فيه عن شغفه بالرحلة، والتطلع لمعرفة الأوطان وكذا معاصره البلاذري⁽⁴⁾... صاحب (فتوح البلدان)⁽⁵⁾.

معنى ذلك أنه بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية ازدادت الحاجة إلى الرحلة، من أجل معرفة البلدان والمسالك، والمخططات وأحوال الناس الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحتى معرفة أوضاعهم السياسية والإدارية وغيرها.

ثم شرع فن الرحلة في الأدب العربي يعرف تطوراً كبيراً انطلاقاً من القرن الرابع الهجري "ويتكرس كنوع أدبي في فجر النهضة العربية الإسلامية بعد انتهاء الفتوحات، فتآزرت في ذلك المادة العلمية والإطار الأدبي، فترى (المسعودي)⁽⁶⁾ في كتابه (مروج الذهب) يقدم جهداً معتبراً، في التاريخ والجغرافية، محرضاً

1- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، م، س، ص 06.

2- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، م، س، ص 129.

3- أي العباس أحمد بن يعقوب المتوفى سنة (284هـ) أو (292هـ).

4- أي أحمد بن يحيى المتوفى سنة (272هـ).

5- عمر بن قينة، م، ن، ص 98.

6- أي أبو الحسن علي بن الحسن المسعودي المتوفى سنة (362هـ-973م).

على الأسفار" (1)، كما نجد أيضاً عمل "البيروني الخوارزمي" (2) الذي شهد القرنين الرابع والخامس... بكتابه الآثار الباقية" (3).

معنى ذلك أنه انطلاقاً من القرنين الرابع والخامس الهجريين بدأ فن الرحلة يعرف تطوراً ملحوظاً، حيث انسجمت فيه المادة العلمية والإطار الأدبي، إذ يمكننا من خلال الرحلة التي هي نوع أدبي أن نطلع على معلومات تاريخية وجغرافية وحتى سياسية واقتصادية عن البلدان التي زارها هؤلاء الرحالة خلال تجوالهم وتنقلاتهم، ولهذا فالرحالة "العرب قدموا على مرّ العصور خدمات جلا في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها، ولم تقتصر إفادتهم في ميدانهم هذا على البلاد الإسلامية وحدوها، وإنما تعدوها في رحلاتهم وأخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا وإفريقيا" (4)، فزودونا بمعلومات كثيرة كنا نجهلها، ولذلك "كان للرحالة العرب في العصور الوسطى فضل كبير قدموه للإنسانية كجغرافيين" (5)، حيث أسهموا عن طريق المعلومات التي نقلوها عن البلدان التي حلوا بها "بتقديم مواد جغرافية جديدة وذات قيمة عظيمة" (6)، وبهذا قدموا مجهودات معتبرة في هذا الميدان.

1- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، م، س، ص 98.

2- أي محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي ولد في سنة (362هـ-973م) وتوفي في سنة (440هـ-1048م).

3- عمر بن قينة، م، ن، ص 129.

*- فابن بطوطة قام مثلاً بثلاث رحلات: الأولى زار من خلالها بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصين، والثانية زار خلالها بلاد الأندلس، وفي الثالثة زار بلاد السودان الغربي وتوغل في مجاهل إفريقيا الوسطى، يراجع حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب- رحلات أمين الريحاني نموذجاً- ص 24، د/ط، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، 1995.

4- م، ن، ص 2.

5- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، م، س، ص 08.

6- م، ن، ص 08.

ولقد انتقل هذا اللون الأدبي الاجتماعي إلى المغرب العربي ابتداءً من القرن السادس الهجري، فكانت "تلك الرحلات المستمرة من قبل المغاربة إلى المشرق إما بدافع الحس أو لطلب العلم أو معاً فكانت حصيلة كل ذلك هو إبداع ذلك الفن الرفيع من أدب الرحلات الذي ظل متواصلاً... فكان بمثابة الفتح الجديد الذي يضاف إلى رصيد الحضارة الإسلامية، وتعتبر فيه المساهمة المغربية رائدة بدون منازع، وقد ساعدت مثل هذه الرحلات على تقريب الأجواء الثقافية وتوصيل المعارف، ولا يخفى علينا الاهتمام المتزايد من قبل المغاربة بكل ما يجد في المشرق العربي حتى أصبح الكثير من علمائه على دراية واسعة بما فيه من مستجدات ثقافية أكثر مما يعرفوه على أوطانهم⁽¹⁾.

ولقد شرعت الرحلة في هذا العصر تعرف تطوراً وتقدمًا بخطوات معتبرة جدًا، حيث "اهتم أهل المغرب للتاريخ والجغرافيا والرحلات... كما اهتموا لسائر العلوم، وقد شمل تاريخهم السير والتراجم وتاريخ الملوك، وتاريخ البلدان، وما إلى ذلك، وقد ضربوا في البلاد والبحار للعلم والحج، والتجارة، والاكتشاف ودونوا أخبارهم ونتائج اختباراتهم ومشاهداتهم، واشتهر منهم في هذا الباب الشريف الإدريسي، وابن بطوطة، وابن خلدون"⁽²⁾.

لقد عرف فن الرحلة في المغرب العربي انتعاشاً كبيراً بفضل جهود الرحالة الأوائل، الذين كرسوا حياتهم للعلم والمعرفة فتسع مجال هذا الفن بمستوى أدبي متطور، عكسته النماذج المنجزة في هذا الفن "وتتعدد - لطبيعة العنوان - ملاحقة المسيرة العامة الطويلة الشاقة المتشعبة التي قطعها هذا الفن الأدبي العربي"⁽³⁾، في هذه

1- د. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص 126، ط1، دار البعث للطباعة والنشر،

الجزائر، 1406هـ - 1986م.

2- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج3، ص 306، ط1، دار الجيل، بيروت، 1985.

3- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، م، س، ص 98.

المنطقة من الوطن العربي "فإن نحن حشنا الخطى عقوداً متتالية من الزمن لخصر الموضوع في (الجزائر) منطلقاً لرحلات عربية يكون من أهم الشخصيات التي نلقاها في القرن الثاني عشر الهجري (عبد الرزاق بن حمادوش)... برحلته* "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"(1).

ويهمنا هنا أن نشير إلى أننا بصدد دراسة الخصائص السردية لهذه الرحلة، ولكن قبل ذلك نؤثر الإشارة إلى حياة مؤلفها وعصره، فمن هو عبد الرزاق بن حمادوش؟ وبماذا تميزت الحياة الثقافية في عصره؟ وماذا تضمنت رحلته؟ هذا ما سنحاول الإلمام به من خلال هذه النبذة السريعة.

2- ابن حمادوش وعصره:

عاش ابن حمادوش "(عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش الجزائري) خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، فقد ولد في مدينة الجزائر سنة (1107 هـ - 1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين ... وكانت أسرته فيما يبدو تمتحن الدباغة"(2)، لأنه وصف والده وعمه في بعض العقود موصوفين بكلمة "الدباغ".

فقد ابن حمادوش والده وهو صغير، فكفله عمه "الذي زوجه ابنته وأسكنه منزله ومع ذلك فإن ابن حمادوش لم يتحدث عن هذا الزواج كثيراً وإنما أكثر الشكوى من زواجه الثاني الذي كان سيء الحظ فيه، وهو مصاهرته لعائلة أمين

*- حققها الدكتور أبو القاسم سعد الله، سنة 1983.

1- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، م، س، ص 130.

2- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص09، د/ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.

النحاسين، وبقيت حرفة التجارة ملتصقة به⁽¹⁾ إلا أن صاحب الرحلة عاش فقيراً بسبب اهتمامه الشديد بالعلم وإهماله للتجارة.

ذكر ابن حمادوش في رحلته أنه رزق بتوأمين (الحسن والحسين) على الأقل من زوجته الثانية، مات أحدهما صغيراً، ولم يذكر ما إذا كان له أطفال من زواجه الأول، كما قال ابن حمادوش في رحلته بشكل صريح أنه لم يكن سعيداً مع زوجته الثانية بعد عودته من رحلته إلى المغرب، يقول: "فقدت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدومي، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي، فلم يبق لها غرض في، ولم تر لما عندي من العلم"⁽²⁾.

ولعل سبب الخلاف بينه وبين زوجته الثانية يعود إلى اهتمامه الشديد بالعلم، وإهماله للتجارة، وهذا أوقع العائلة في حرج وضيق كما يذكر أيضاً في رحلته أنه لم يكن ميسور الحال، فقد كان الفقر يلزمه ومع ذلك لم يترك حلقات العلم والعلماء، رغم المشاكل المادية والعائلية التي تعرض لها.

درس ابن حمادوش على طريقة عصره، "فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة، بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء بلده ولكن مرحلة تعلمه الأولى لا تزال مجهولة... غير أنه يمكننا استنتاج ذلك من مستوى ثقافته كما يظهر في مؤلفاته التي وصلت إلينا ومن ذلك إشارات ذكرها بنفسه حين تحدث عن عائلته وجيله من الأدباء والفقهاء"⁽³⁾.

والظاهر أن صاحب الرحلة تحدث عن مرحلة تعلمه الأولى في الجزء الأول من رحلته وهو مفقود الآن - حسب علمي - "ويؤكد ابن حمادوش نفسه في الجزء

1- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، المجلد السابع،

ص206، ط1، دار الجيل، بيروت، 1426هـ - 2005.

2- الرحلة، ص115.

3- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، م، س، ص206.

الثاني الذي بين أيدينا أنه قد انتهى من الجزء الأول وذكر في عدة مناسبات أنه تناول فيه كيت وكيت*⁽¹⁾، فلا شك أنه تحدث عن طفولته وعن مرحلة تعلمه الأولى التي لم يذكرها - كما سبق وذكرنا - في الجزء الثاني الذي بين أيدينا والذي نحن بصدد دراسته.

أما المرحلة الثانية من طلبه للعلم فتعكس اهتمامه الشديد "بكتب التراث العلمي العربي واليوناني، فطالع اقليدس وبول، وغاليان، وابن سينا، والأنطاكي، وابن البيطار، والقلصادي، والحسن المراكشي وأمثالهم"⁽²⁾.

ففي هذه المرحلة استقل مؤلف الرحلة بقراءته الخاصة، حيث نجده يطالع كتباً في الفقه والحديث والتاريخ والأدب "وكان كثير القراءة في كتب الطب القديمة عربية وأجنبية، فقرأ ولخص ودرس تأليف ابن سينا وابن البيطار والأنطاكي، وقال عن كتاب الدول للملطي* أنه (لم ير مثله في التراكيب العربية وأساليبها فيما عرب من كتب النصارى)"⁽³⁾.

*- كيت وكيت: يكتني بهما عن الحديث والخبر، ولا تستعملان إلاً مكررتين، يراجع جبران مسعود، الرائد: معجم ألفبائي في اللغة والأعلام، ص749، ط3، دار العلم للملايين، تموز/يوليو، بيروت، 2005.

1- الرحلة، ص13.

2- م، ن، ص13.

*- هو مختصر تاريخ الدول لأبي العبري (أبو الفرج المعروف بقريقروريوس الملطي)، طبع كتابه أول مرة بنصيه العربي واللاتيني سنة 1613م، كما طبع في بيروت سنة 1890 وأخرى سنة 1958.

3- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج2، ص428، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007.

يبدو أن ابن حمادوش كان يقرأ الكتب المعربة، أو "يقرأ ما يسميه بكتب النصارى، ويعجب بما فيها، ولكنه حذر، مع ذلك مما يتعلق فيها بالدين والعقائد"⁽¹⁾، فرغم أنه نقل عن كتاب الدول للملطي، تراجع عدد من العلماء المسلمين وغيرهم من أمثال: محمد البتاني، ومحمد الرازي، وابن سينا، والفارابي، والبيروني، وإقليدس، وأبو لونيوس النجار ...، نجده يعلق عليه بقوله: "هو كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع، لولا أنه محشو كفرًا تزل فيه الأقدام، فيجب التحذير منه"⁽²⁾.

ويذكر ابن حمادوش في رحلته أنه قرأ عددا كبيرا من الكتب في مختلف الفنون والعلوم كما أورد أيضا أسماء الشيوخ والعلماء الذين تثقف على أيديهم في الجزائر والمغرب أو في تونس والمشرق، "ولئن كنا لا نجد أثرا لشيخوخه الأولين لفقدان الجزء الأول من رحلته في الوقت الحاضر، فإننا نعرف من الجزء الثاني منها أنه قرأ في الجزائر على يد الشيخ محمد بن ميمون، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحدق والمكانة في مجتمع عصرهم أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) والمفتي الشاعر ابن علي، وعبد الرحمن الشارف، وأحمد الزروق البوني... ومن قرأ عليهم ابن حمادوش في المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني الفاسي وأحمد الورززي التطواني، وأحمد السرائري... أما من تونس فلم يذكر فيما بين أيدينا من وثائق سوى الشيخ محمد زيتونة الذي يسميه (شيخنا)، والشيخ محمد الشافعي"⁽³⁾.

1- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، ص450، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007.

2- الرحلة، ص143.

3- د. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص146، 147 د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

ويظهر لنا من خلال الرحلة أن صاحبها كان يكتب يومياته ويسجل ملاحظاته ومشاهداته، ويذكر من لقيهم من العلماء والأدباء سواء الذين قصدهم أم الذين سمع عنهم، كما نلاحظ أيضاً أنه كان يسعى جاهداً للاتصال بهم وللأخذ عنهم، وللإستفادة من تجاربهم وخبراتهم وبالتالي يحصل على الإجازة*، بل أنه كان يلح في أخذ الإجازة من العالم الذي يقصده، ويتبع الطريقة المعروفة في الإستجازة كتقديم أبيات من الشعر أو قطعة من النثر، مقدماً نفسه، ومثنياً على المجيز، ثم يطلب منه الإجازة⁽¹⁾، بشكل واضح وصريح.

ولقد كان ابن حمادوش شديد الإهتمام بملازمة العلماء كي يأخذ منهم ويقرأ عليهم، وبالتالي يحصل على الإجازة - كما سبق وذكرنا - وهذا ما يجسد فعلاً

* - له قصيدة يمدح فيها الشيخ محمد بن عبد السلام البناي الفاسي، يلح فيها على طلب الإجازة، يراجع الرحلة، ص 39، يقول فيها:

سَمَوْتَ فَلَمْ يَكُنْ بِقُرْبِكَ نَازِلٌ	فَكُنْتُ فِي أَوْجِ الْعِزِّ تُمَطِّرُ بِالسُّؤَالِ
فَأَنْتَ هُوَ الشَّمْسُ النُّبْرَةُ فِي الْوَرَى	لَكَهْفِكَ قَدْ تَأْوَى الرِّكَابُ لِلظِّلِّ
طَلَعْتَ بَارِضِ الْغَرْبِ كُنْتَ نَهَارَهُمْ	فَفِي نُورِكَ الْإِسْلَامُ تَذْهَبُ فِي السَّبِيلِ
وَقَدْ حَسَدَ الشَّرْقُ الْمَغَارِبَ فِيكُمْ	فَأَرْسَلَنِي تَرْوِي الرِّوَايَةَ بِالنَّقْلِ
رَدَدْتَ بِنُورِ الْعِلْمِ شُمُوسَهُمْ	فَطَالَتْ لِيَالِيَهُمْ وَمَلُّوا مِنَ اللَّيْلِ
أَيَا شَيْخَنَا الْبَنَانِي الْأَسْمَ مُحَمَّدُ	فَقَدْ شَهِدْتَ لَكَ الْأَكَابِرُ بِالْفَضْلِ
كَأَنَّكَ لَقَمَانُ فِي عِلْمِكَ وَالْهُدَى	أَوْ أَنَّكَ حَسَانُ إِذَا فُهِتَ بِالْقَوْلِ
أَبَحْ لِي أَنْلَ مِنْ بَحْرِ عِلْمِكَ غَرْفَةً	أَبْلُ بِهَا حَرَّ الْفُؤَادِ مِنَ الْجَهْلِ
أَجْزَنِي وَأَطْلِقْ لِي رِوَايَةَ كُلِّمَا	رَوَيْتُهُ عَنْ أَشْيَاخِ عِزِّ أُولِي الطُّولِ
وَوَشِّحْ بِخَطِّكَ الشَّرِيفِ إِجَازَتِي	فَذَاكَ لَهَا الزَّهْرُ النَّضِيدُ مَعَ الْفَلِّ
عَلَيْكُمْ سَلَامُ اللَّهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ	وَأَتْبَاعُكَ النَّجْلُ الشَّرِيفُ عَلَى الْفَعْلِ
وَصَلِّ إِلَهَ الْعَرْشِ عَنْ خَيْرِ مُرْسَلٍ	وَأَفْضَلُ مَنْ حَارَ الشَّفَاعَةَ فِي الرُّسُلِ.

1- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين م، س، ص 207.

فكرة "أن الجزائري* مجبول على حب العلم فقد قام بالرحلات في سبيل اقتفائه"⁽¹⁾، ولذلك نجد أن صاحب الرحلة كان كثير التنقل والترحال في عواصم ومدن العالم الإسلامي العربي كتطوان وفاس، ومكناس، وتونس، والرشيد، والحجاز، فقد التقى بعلماء هذه البلدان وخالطهم وجالسهم وإستفاد من تجاربهم في مختلف الميادين وهذا ما جعل الكثير يعتبره شاهدًا على عصره"⁽²⁾، نظرًا للمعلومات الكثيرة التي أوردها في الرحلة، والتي تعتبر مصدرًا هامًا للباحثين في شتى الميادين سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا.

عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، ولقد عرف هذا القرن تحولات كثيرة داخل الجزائر وخارجها، وكان ابن حمادوش من مشاهديها ومن مسجلي آثارها"⁽³⁾.

فعلى الصعيد الثقافي نستطيع القول بأن عصره تميز بشيءٍ من الإنتعاش الثقافي، ففي القرن الثاني عشر الهجري، عرفت الجزائر أسماء لامعة في الإنتاج الأدبي والفقهية

*- كان الجزائريون خارج الوطن (الجزائر)، ينسبون أنفسهم إليه وبدأت عبارة التلمساني والقسنطيني والزواوي والعناي... تختفي من أسمائهم، يراجع الدكتور أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص296، 297.

1- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ص05، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

2- فقد نقل عنه الدكتور محمد داود أخبارًا عن المغرب وخصوصًا عن الأحداث التي وقعت في مدينة تطوان، كما نقل أيضًا أسماء علمائها وشيوخها في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، يراجع الدكتور محمد داود، تاريخ تطوان، القسم الأول، المجلد الثالث، ص148، 152، د/ط، تطوان، 1962.

3- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص13، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

والتاريخي والعلمي، ففي ميدان الأدب هناك شيخه محمد بن ميمون، وصديقه أحمد بن عمار... وفي الفقه ونحوه ظهر أحمد البوني وخليفة بن حسان القماري وعبد القادر الراشدي، وفي التاريخ نجد أباراس، وابن المفتي، وفي التصوف يكفي الإشارة إلى الحسين الورثلائي، ومحمد بن حواء، كما ألف ابن علي الشريف في الفلك، وهناك قائمة طويلة من المفتين المالكية والحنفية تداولوا على وظيفة الفتوى، وكان فيهم المدرسون المشهود لهم والشعراء والمؤلفون، نذكر منهم حسين العنابي، ومحمد نيكرو، ومحمد بن جعدون، ومحمد بن الشاهد، وعلي بن عبد القادر الأمين⁽¹⁾.

فالقرن الثاني عشر الهجري - إذن - شهد نشاطاً معتبراً في مختلف الفنون والعلوم، "وهو نشاط عكسته نماذج معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها"⁽²⁾، كما أولت الجزائر في هذا القرن عناية خاصة للتعليم، ولا سيما في مدينة قسنطينة على يد صالح باي، بالإضافة أيضاً إلى انتشار الزوايا وكثرة الأوقاف على المساجد، وكثرة العلماء والمتصوفة، "ولكن لا يمكننا القول بأن الجزائر على عهد ابن حمادوش كانت تشهد نهضة أو ازدهاراً ثقافياً ذلك أن معظم علمائها كانوا ما يزالون عالة على المعاهد الإسلامية في فاس وتونس والقاهرة، كما أنهم لم يستفيدوا شيئاً من الناحية العلمية من تجارب الأوروبيين في حقل النهضة"⁽³⁾.

بالإضافة إلى أن الجزائر كانت في ذلك الوقت خاضعة للحكم العثماني، ونحن نعلم أن الأتراك لم يعطوا لأمر الثقافة ما تستحقه من عناية واهتمام، ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري، إلا أننا لا ننكر بأن مدناً مثل: بجاية

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، م، س، ص 13.

2- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، م، س، ص 99.

3- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، م، س، ص 13.

وقسنطينة وتلمسان ومازونة لم تزل محافظة على ما ورثته من التراث الفكري، فنبغ فيها رجال خلفوا لنا عُلُومًا وأدبًا⁽¹⁾، فلقد كانت الرحلات التي قام بها العلماء الجزائريون شرقًا وغربًا للإتصال بغيرهم من العلماء والأدباء، خير دليل على الجهود المبذولة في سبيل العلم، لذلك كان طلب العلم والرغبة في تحصيله أهم مقصد للعلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب، "وقد كان الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر، رغم تقلب الأحوال السياسية فيه، فقرب المغرب من الأندلس، وكثرة مراكز التعليم والعواصم العلمية، ووفرة المكتبات ووجود القرويين وتقدير ولاية المغرب لأهل العلم، كل ذلك لعب دورًا في جلب علماء الجزائر إلى هناك"⁽²⁾.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن ابن حمادوش كان واحدًا من بين العلماء الجزائريين الذين رحلوا إلى المغرب، وأقاموا فيه مدة من الزمن، "ويبدو أنه كان يتردد على المغرب للتجارة والعلم"⁽³⁾، ويذكر هو في رحلته أنه كان هناك في سنة 1145هـ، و"وجدناه أيضًا هناك سنة 1156 هـ، حين أطل فيه الإقامة"⁽⁴⁾، ولهذا تعتبر رحلته من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي⁽⁵⁾، فالرحلة بهذا لها أهمية كبيرة لا تحتاج إلى طول نظر فهي نادرة في نوعها إذ لم يُبقَ لنا الزمن سوى عدد ضئيل جدًا من الرحلات الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني⁽⁶⁾، فهي (الرحلة) تزخر بالمعلومات الكثيرة عن

1- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج، م، س، ص 255.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج 1، م، س، ص 428.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج 2، م، س، ص 426.

4- م، ن، ص 426.

5- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، م، س، ص 143.

6- الرحلة، ص 24.

عصره سياسياً واقتصادياً وفكرياً واجتماعياً، كما تضم أيضاً أخباراً عن معاصريه، فلقد تحدث في الرحلة عن أفكارهم وأخلاقهم ونظمهم وأذواقهم.

3- مضمون الرحلة:

من خلال اطلاعنا على مضمون الرحلة، نستطيع القول بأنه يمكن تقسيم محتواها العام إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً:

قسم المغرب، وهو "من الصفحة 2 إلى 75، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه رحلة"⁽¹⁾، والظاهر أن ابن حمادوش كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم - كما سبق وذكرنا - ولقد "باشر المؤلف كتابتها في (1156هـ-1743م) من دون تحديد المكان لا في هذه البداية، ولا في تاريخ الفراغ من كتابتها (1160هـ-1747م)... ويتضح شكل الرحلة في القسم الخاص بحديثه عن المغرب الأقصى فقط"⁽²⁾.

يذكر ابن حمادوش في رحلته أنه سافر إلى المغرب على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاثة تجار جزائريين في 14 فبراير 1743، كما يذكر أيضاً أن أول مدينة زارها في المغرب هي تطوان، يقول: "بعد شروق الشمس خرجنا من جبل طارق... فدخلت تطوان في أول الساعة السابعة، وصلت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي فسلمت عليه"⁽³⁾.

1- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، م، س، ص 152.

2- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، م، س، ص 99:100.

3- الرحلة، ص 02.

والظاهر أن ابن حمادوش ذكر كل ما شاهده وعاشه في المغرب كوصفه لشورة حاكم تطوان (أحمد الريفي) ضد السلطان (مولاي عبد الله)، كما تضمنت رحلته أيضاً أخباراً عن عادات وتقاليد سكان المغرب خاصة في الإحتفال بليلة المولد النبوي، بالإضافة أيضاً نجده يذكر غرائب وعجائب ما رأى في المغرب كدخولهم عراً تماماً للحمامات وهذه عادة استقبحها صاحب الرحلة، يقول عن ذلك: "من أقبح ما في المغرب كله حماماتهم، ويبدون عوراتهم فيها"⁽¹⁾، كما تحدث أيضاً عن عادات غريبة أخرى رآها في المغرب "ومنها أن رجالها لا يتعممون إلا القليل، وأن نساءها لهم عمام كبار"⁽²⁾، للإضافة إلى ذلك أورد ابن حمادوش تفصيلاً مهماً عن الدروس التي حضرها في المغرب، فذكر أسماء العلماء الذين التقى بهم، وناقشهم وقرأ عليهم .

ثانياً:

قسم عن المؤلف نفسه في الجزائر، "وهذا القسم ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه"⁽³⁾، وهذا الجزء يمكن أن نعتبره سيرة ذاتية عن المؤلف نفسه، فلقد ذكر أخباراً متفرقة عن حياته الشخصية الصعبة والقاسية، لأنه كان فقيراً، فتسبب له ذلك في كثرة المشاكل مع زوجته الثانية ومع عائلته الأخرى أيضاً، يقول: "...باتت أُمِّي عندي فأخذت تلوم سعدي، حتى قالت: يا ليتني لم ألدكم ذكوراً لسوء سعدكم وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق ولم أرقط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك، فقدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدمي"⁽⁴⁾.

1- الرحلة، ص 59.

2- م، ن، ص 60.

3- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، م، س، ص 153.

4- الرحلة، ص 76.

ورغبة صاحب الرحلة في طلب العلم، جعلته كثير التنقل والترحال في سبيل تحصيله، غير أن ذلك انعكس سلباً على حياته العائلية والشخصية، فكثرت مشاكله لأنه أهمل التجارة التي تعتبر مصدر رزق العائلة.

وعلى كل حال فلقد عاش ابن حمادوش حياة مليئة بالفقر والضيق والمشاكل، "وقد كان الفقر سبباً في شقاء زواجه أيضاً حتى هربت منه زوجته الثانية وطلبت الطلاق، وفارقت أمه وأخوه، وحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه النجاح، لأنه كما قال: كان لا يفارق الكتب"⁽¹⁾، حتى في أصعب الظروف التي كانت تواجهه كمعاناته من الغربة في المغرب، وكساد تجارته، وانقطاع الأخبار بينه وبين أهله في الجزائر.

ثالثاً:

ويتضمن هذا القسم "نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين: مثل الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب تاريخ الدول للملطي، وأنس الجليل للعلمي، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر، وكذا مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص العامة كقصة الفيل وقصة العنقاء"⁽²⁾.

معنى ذلك أن مؤلف الرحلة اعتمد على كتب ووثائق مكتوبة للمتقدمين أما المعاصرين له، فكان يأخذ عنهم بالمشافهة والسماع، فيحصل في الأخير على الإجازة منهم، فهذه العوامل ساهمت بشكل أو بآخر في تكوين شخصية ابن حمادوش العلمية والثقافية، ضف إلى ذلك كله تجربته الشخصية، فكثيراً ما كان يروي أحداثاً في رحلته شاهدها عياناً أو عاشها، "فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج2، م، س، ص425.

2- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، م، س، ص153.

تحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها بالدرجة الأولى التجربة الشخصية⁽¹⁾، وهي المصدر الغالب عليه في جمع المعلومات، فالمحور الرئيسي الذي تدور حوله الرحلة بكل أقسامها - إذن - هو شخص المؤلف.

1- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، م، س، ص 154.

الفصل الأول

تطور فكر ابن حمادوش في الرحلة

1- الفكر الديني

2- الفكر العلمي

3- الفكر التجاري

لم تكن عائلة ابن حمادوش من العائلات الجزائرية المشهورة - في القرن الثاني عشر الهجري (18م) - بالعلم، فقد ذكر والده وعمه موصوفين بكلمة الدباغ، أي أنهم اشتهروا بالتجارة وليس بالعلم، "وعندما افتخر ابن حمادوش أمام المفتي الحنفي ابن علي* لم يفتخر بعلم أسرته ولا بمكانتها الاجتماعية والسياسية وإنما افتخر بشرفه ونسبته إلى آل علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه"⁽¹⁾.

كما ورد ذكر ابن حمادوش في عقد زواجه الأول مجرداً عن كل ألقاب العلم سواء له أم لأهله، يقول "تزوج على بركة الله وتوفيقه المكرم الشاب عبد الرزاق بن الحاج أحمد الدباغ"⁽²⁾، أما في عقد زواجه الثاني نلاحظ أنه وصف بالنسك والفقہ والعلم والنباهة يقول: "تزوج على بركة الله وتوفيقه، وعلى منهاج الشرع القويم وطريقه المكرم الأجل الناسك الأبر الفقيه العالم النبيه السيد عبد الرزاق بن السيد محمد ابن حمادوش"⁽³⁾.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن ابن حمادوش نال هذه الأوصاف بعد أكثر من ثمان وعشرين سنة من التحصيل العلمي والأسفار فهذا التنقل والترحال من مكان إلى آخر في سبيل اكتساب العلم والمعرفة كان له دور في تكوين شخصية ابن حمادوش العلمية وتنميتها وتطويرها، و"تشهد رحلته أنه كان رحالة كثير الاهتمام بطبائع الناس وغرائب الأشياء دقيق الملاحظة"⁽⁴⁾.

* - هو محمد بن محمد المهدي ويعرف بابن علي، تولت أسرته القضاء والفتوى في الجزائر خلال القرن الحادي عشر الهجري، ولد حوالي 1090هـ، وتولى الفتوى الحنفية سنة 1150هـ، وظل فيها إلى سنة 1169هـ، حين توفي أو عزل، ولا ندري تاريخ وفاته بالضبط، يراجع الرحلة، هامش، ص 256.

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 22.

2- الرحلة، ص 241.

3- م، ن، ص 242.

4- م، ن، ص 10.

بناءً على ما جاء في الرحلة من حوادث وأخبار ومعلومات كثيرة نستطيع تتبع وتقصي تطور فكر مؤلفها، ولذلك سنحاول في هذا الفصل الكشف عن هذا التطور من خلال: الفكر الديني، الفكر العلمي، الفكر التجاري.

1- الفكر الديني:

والظاهر أن مؤلف الرحلة كان أشعري العقيدة مالكي المذهب، حيث نجده يصرح بذلك في بداية الرحلة "يقول عبد الرزاق بن محمد بن أمحمد بن حمادوش الجزائري الدار والمنشأ، الأشعري عقيدة، المالكي مذهباً، الشريف نسباً"⁽¹⁾، وتجدر الإشارة هنا إلى أن مذهب الإمام مالك ابن أنس⁽²⁾ في الفقه هو المذهب الأكثر شيوعاً في الجزائر حيث "كان أغلب الشعب الجزائري على المذهب المالكي"⁽³⁾، بل أننا نجد "مذهب مالك في الفقه يأخذ المرتبة الأولى، بل ينفرد بالميدان ويهيمن على البيئة المغربية"⁽⁴⁾.

وكانت المواد التي تدرس في المرحلة الأولى للصغار القراءة والكتابة والقرآن "وبعدها كانوا يدرسون العلوم الدينية واللغة العربية والمنطق والحساب وعلم الفلك وعلم الجداول لتحديد مواقيت الصلاة ثم الطب... وعند ما يصل الطلبة إلى مستوى

1- الرحلة، ص 29.

2- هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر، بن عمرو بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن حارث، وهو من حلفاء بني تيم بن مرة، وثاني الأئمة الأربعة في الميلاد، فقد ولد في سنة 93هـ، وتوفي في سنة 179هـ، له كتاب في الفقه يسمى الموطأ، يراجع الدكتور شاهر ذيب أبو شريخ، موسوعة عباقرة في الإسلام، ص 349، 363، ط 1، دار الصفاء للنشر والتوزيع عمان، 1424هـ-2004.

3- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، ص 109، ط 1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

4- محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، ص 192،

د/ط، دار الثقافة، المغرب، 1406هـ-1985.

معين يمكنهم الرحيل"⁽¹⁾ في سبيل تحصيل العلم والمعرفة، وهكذا وجدنا ابن حمادوش قام بالرحلة لهذا الغرض.

فلقد أدى ابن حمادوش فريضة الحج وعمره ثلاثة وعشرين سنة فقط يقول: "كنت بسوسة تونس عام 1130هـ ذاهبا إلى الحج"⁽²⁾، كما نلاحظ أيضا أن الرحلة تتسم بسمة دينية نلمسها في كل مناسبة أو حادثة يعيشها المؤلف، ولا غرابة في ذلك لأن ابن حمادوش متشبع بتربية إسلامية متينة و متمسك بتعاليمها، فالرحلة "سجل لعبارات دينية كثيرة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وألفاظ إسلامية"⁽³⁾، نستطيع من خلال القراءة المتأنية لمضمونها ملاحظة ذلك جليا.

لذلك نجد مؤلف الرحلة يحمد الله ويسبحه ويشكره ويصلي على نبيه المصطفى "صلى الله عليه وسلم" في كل وقت وحين كما كان مهتما بكتب التفسير والحديث "ومن ذلك كتب الحديث الستة وخصوصا صحيح البخاري الذي ختمه عدة مرات بالجامع الكبير بالعاصمة أو في دار شيخه ابن ميمون"⁽⁴⁾ بالعاصمة، ويذكر ابن حمادوش أنه كان يقوم بإحدى الوظائف الهامة في الجامع الكبير بالعاصمة يقول: "وفي التاسع شعبان عام (1157هـ) أذن لي أن أرجع إلى وظيفتي من حضور البخاري"⁽⁵⁾ وأثناء حضوره سرد البخاري لاحظ ابن حمادوش الفرق بين المملي

1- محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، م، س، ص 109.

2- الرحلة، ص 184.

3- محمد بن أحمد بن شقرون، م، ن، ص 178.

* - هو أبو عبد الله محمد بن ميمون، أهملت جميع المصادر ترجمة هذه الشخصية، كما سكنت عن تحديد زمان ولادته ووفاته وضبط مكانهما، يراجع محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، تقديم وتحقيق، الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري، المقدمة، ص ب، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1392هـ-1972.

4- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 28.

5- الرحلة، ص 121.

الفحيح وغير الفحيح يقول "...وقرأ سيدي أحمد العمالي منه إلى غزوة الطائف فلما رآه المفتي الحاج الزروق لم يحسن قرأ حجة الوداع"⁽¹⁾، من هذا نفهم طريقة سرد صحيح البخاري في الجزائر، حيث كان العلماء والطلبة يجتمعون في شكل حلقة ويقوم المسمع بقراءة جزء منه بصوت عال حتى يتمكن جميع الحاضرين من سماعه وفهمه.

من هنا لاحظ ابن حمادوش أن العلماء كانوا يتناوبون على قراءته بشكل جيد وبناءً على ما تقدم نستطيع القول "أن المسجد الجامع في الواقع جامعة فكرية كبرى يلتقي فيها العلماء والطلبة"⁽²⁾ حيث يتناقشون "فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم وقضايا المعرفة"⁽³⁾، فلقد كان الجامع الكبير بالعاصمة مقصداً لطلاب العلم، فكان صحيح البخاري من أهم المحاور التي تعقد حولها الحلقات، ويبدو "أن أهل الجزائر لهم ولوع برواية البخاري والمشاهير من علمائهم يقرؤونه دراية، ويبتدئون قراءته من أوله إلى آخره مدة ثلاثة أشهر من اليوم الأول من رجب، ويختمونه في أواخر رمضان على وفق المراد"⁽⁴⁾، وهذا يؤكد فعلاً ما أورده المؤلف في الرحلة عن طريقة سرد صحيح البخاري في الجزائر.

كما ذكر المؤلف عادات اجتماعية كان سكان الجزائر يمارسونها عقب صحيح البخاري، "وهي تستمد أصولها من التاريخ الإسلامي والحضارة العربية بصفة

1- الرحلة، ص 122.

2- د. عمر موسى باشا، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، ص 210، د/ط، مطبعة الإحسان، دمشق، 1399هـ-1979.

3- د. عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، ص 38، د/ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.

4- الزهار أحمد الشريف، مذكرات الشريف الزهار، نشر أحمد توفيق المدني، ص 182، د/ط، الجزائر 1977.

عامة" (1)، فنقل لنا صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عقب ختم صحيح البخاري يقول: "وصلينا على النبي الصلاة المعهودة قي الجزائر عقب البخاري، وهي اللهم صلي أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، ورش الخدم ماء الورد الناس" (2).

كما وصف مؤلف الرحلة عادة الجزائريين أيضاً في الاحتفال بليلة القدر، فلاحظ أن "متولي الجامع الكبير يفرغ قنطاراً أو أكثر شمعا يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء... ثم يطاف بهذه الشموع في تجاه دار المفتي أو الوكيل، ومنها إلى دار الإمارة عبر الشوارع المزينة وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية، وبالصلاة والسلام على النبي ثم يعودون إلى الجامع من طريق أخرى" (3).

نلاحظ أن ابن حمادوش أجرى مقابلة بين عادات الاحتفال بالمولد النبوي في فاس والجزائر يقول: "وفي ذهابي لقيت الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من نوع، أحدها خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء والرابعة نسيت لونها، أ خف مما يجعل في الجزائر عندنا" (4).

فهذا الاختلاف في طبيعة الاحتفال بليلة مولده صلى الله عليه وسلم، كان من بين الملاحظات التي سجلها ابن حمادوش في رحلته "فهي كثيراً ما تهم بالعبادات والتقاليد وتعني بتحديد الفروقات بين الشعوب والمجتمعات مشيرة إلى الاختلاف" (5)، فعادات وتقاليد الاحتفال في المجتمع المغربي تختلف عما هو موجود

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، م، س، ص159.

2- الرحلة، ص125.

3- يراجع الرحلة، ص125، 126.

4- م، ن، ص84.

5- محمذن بن أحمد بن الحبوبي، أدب الرحلة في بلاد شنقيط، ص6، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا

في اللغة العربية وآدابها، الرباط، 1994-1995.

عندنا في الجزائر .

نستطيع القول من خلال ما جاء في الرحلة، أنّ شدة الملاحظة والتدقيق فيها، لم تكن وحدها من مميزات فكر ابن حمادوش، فلقد كانت الجرأة من صفاته أيضاً، حيث نلاحظ "أنّه كان يناقش العلماء... ولم يكن يتلقى منهم فقط"⁽¹⁾، ومن ذلك مثلاً مناقشته لشيخه أحمد الورززي* في أفضلية الملائكة أو الرسل، يقول: "حضرت مجلس الشيخ سيدي أحمد الورززي بجامع عند باب الملاح، يدرس ليلاً التفسير... فقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾⁽²⁾ من سورة هود، وكان ليلة الأحد الرابع عشر من محرم، إلى ليلة الثلاثاء ثالث وعشرين الشهر المذكور، فقرأ قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾⁽³⁾ من سورة يوسف، فقال: ووجه تشبيه النسوة يوسف بالملك ما جبل في قلوب الخلائق من تفضيل الملك على الأنس"⁽⁴⁾.

لم يرض ابن حمادوش برأي الشيخ الورززي حين قال بتفضيل الملك على الأنس وحاوره في هذه المسألة قائلاً: "...أقول بتفضيل الملك على الأنبياء ولم تستثن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم؟ قال لي: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾⁽⁵⁾، وهو جبريل، ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم؟، ثم لما أكثر علي، قلت له: أني لم استحضر الجواب: ... فلما كان الغد، أتيت (الورززي)،

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 27.

* - ورد ذكره في الرحلة عدة مرات، وهو من كبار علماء وقته، زار الجزائر مرتين على الأقل، توفي سنة

1179هـ، يراجع الرحلة، هامش، ص 31.

2- سورة هود: الآية 77.

3- سورة يوسف: الآية 31.

4- الرحلة، ص 65.

5- سورة النجم: الآية 5.

فأتى بكتاب فيه أن إجماع أهل السنة منعقد على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإجماع المعتزلة منعقد على أن الملائكة أفضل، قلت: أليس هذا شاهداً لي؟ قال: لا، قلت: ألم تقل أنك أخذت تفضيل الملائكة من قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ قال: نعم، قلت: يلزم من دليلك أن يكون جبريل وحده أفضل لا جميع الملائكة، قال: هو أحدهم، وجنس الملائكة أفضل من جنس الآدمي، قلت: إن كان هذا، فلي دليل يردّه، قلت: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾⁽¹⁾، فهذا دليل على أن آدم علم جميع الملائكة، فهو أفضل من كلهم صراحة بخلاف دليلك، فقال لي: أولئك الملائكة غير هذه، فقلت له: ألسن تقول: الجنس؟ فقال: ليس هكذا، فقلت: أي مذهب تتبع؟ قال: أنا لا أقول أحداً، قلت: فلم تدرس سيدي خليل؟ قال لي: أما في الفروع فأقلد مالكا، وأما في الأصول فلا، فقلت: فما يقال فيك؟ قال: أنا رجل محمدي، فقلت: ومن يبلغك الكتاب والسنة إن لم تقتف آثار هؤلاء؟ ثم انصرفت عنه، فلم أعد إلى مجلسه أصلاً، نسأل الله أن يهدينا ويهديه إلى الحق والسلام⁽²⁾.

رغم أن الورززي أجاز المؤلف، فإن هذا الأخير لم يكن تلميذاً تابعاً له في كل شيء، وخير دليل على ذلك هو الحوار السابق الذي جرى بينهما حول أفضلية الملائكة أو الرسل، والذي نتج عنه استقلالهما في الرأي غير أننا نجد ابن حمادوش يعود إلى الشيخ الورززي - كما سنرى - حين طلب منه أن يتوسط له كي يتخلص من المكس (الضريبة) الذي فرض عليه في ميناء تطوان، وهذا دليل على أن المؤلف لم يقاطع شيخه بصفة نهائية، بل يبقى الأمر مجرد خلاف فكري حول مسألة كلامية.

1- سورة البقرة: الآية 33.

2- الرحلة، ص 67.

ومن خلال ما ورد في الرحلة يتضح لنا أنّ المؤلف كان من الفقهاء المتمكنين والمجربين أيضاً، بدليل رأيه في طير الماء، يقول: "... أنّ طير الماء كطير البرّ في الحكم، لا كالسمك فاعرف حكم الله فيه لا يؤكل ميتة لأنه يعيش خارج الماء لا داخل الماء، وبالله تعالى التوفيق، وهي مسألة قل من يحققها"⁽¹⁾.

يبدو أنّ ابن حمادوش كان شديد الاهتمام بمناقشة المسائل الفقهية، وفي هذا تأكيد على أنّه لم ينقطع عن تيار عصره تماماً وخير دليل على ذلك هو اجتهاداته في إصدار بعض الأحكام الفقهية التي ضمنها في الرحلة.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن ابن حمادوش لم يكن "من المتصوفة أو حتى المتظاهرين بالتصوف مثل معظم فقهاء وقته... ولذلك حكم بعضهم بأنّه كان عقلياً بمقياس ذلك العصر"⁽²⁾ غير أننا نجد في الرحلة ما يدل على أنّه كان متجاوباً مع روح العصر في هذا الجانب أيضاً، ولكن بنسبة ضئيلة جداً.

ومن ذلك ما أورده هو في رحلته من أنّه تردد على ضريح الولي الصالح سيدي علي الريفي للزيارة وأخذ العهد، يقول: "ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلاً، فقطعت واد الكيتان إلى أنصاف فخذي، وهو واد عظيم من أفضل المياه، فبلغت له ضحاء فلقيني خادمه وسلم علي وأدخلني قبة قبر الشيخ فأجلسني عنده وذهب، فبقيت إلى قرب الزوال"⁽³⁾.

ويظهر من خلال كلامه (ابن حمادوش) أنّه قطع مسافة طويلة راجلاً، وعبر وادي الكيتان الذي وصلت مياهه كما أخبرنا إلى فخذه، غير أننا نلاحظ أنّه "لم يذكر زيارات أخرى لأولياء آخرين في الجزائر أو في المغرب، رغم كثرتهم وشهرتهم

1- الرحلة، ص 73، 74.

2- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 48.

3- الرحلة، ص 33.

التي ربما تجاوزت شهرة سيدي علي الريف"⁽¹⁾، فهذا يدفعنا إلى التساؤل عن السر وراء زيارته لضريح الشيخ سيدي علي الريف* بالذات دون غيره؟.

والظاهر "أن ابن حمادوش لم يسلم من الانجراف في تيار العصر، وهو تيار التصوف، غير أننا لا ندري إلى أية طريقة صوفية كان ينتسب"⁽²⁾، فرغم فقره كان فخوراً بشرفه وبصلته بآل البيت، بل إنه تعالى على المفتي ابن علي قائلاً:

فَلَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ غَيْرُنَا وَإِنْ أَدْرَكَ الدُّنْيَا وَحَازَهَا فِي الْأَيْدِي⁽³⁾

كما أننا نلاحظ أنه انتصر للسلطان المغربي عبد الله "رغم أنه لم يسمح له بالدخول عليه بالقصيدة التي أنشأها فيه"⁽⁴⁾، فالسلطان (مولاي عبد الله) هو الشريف الحقيقي، بينما أحمد اليفي في نظره ادعى الشرف، "وفي مدح ابن حمادوش للسلطان افتخر بأنه ينتمي إلى نفس الأرومة التي خرج منها السلطان (أي السيدة فاطمة)"⁽⁵⁾.

حيث نجده يذكر ذلك في قصيدة مدح فيها السلطان عبد الله سنة 1145هـ، أثناء توليته الأولى، قائلاً:

هُمْ اللَّوْلُوُ الْمَكْنُونُ فِي صِدْقِ التَّقَى وَإِنَّهُمْ الْيَاقُوتُ فِينَا إِلَى الْحَشْرِ
هُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا وَشَمْسُ نَهَارِهَا وَلَوْلَاهُمْ مَا أَتْبَعَ اللَّيْلُ بِالْفَجْرِ
هُمْ النُّورُ وَالسِّرُّ الْمَصُونُ إِذَا بَدَا إِلَى الْخَلْقِ، وَالرَّوْضُ الْمُرَوَّتُقُ بِالزَّهْرِ

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 49.

* - يكتبه تارة اليفي، وتارة أخرى سيدي علي الريف، وهو من صلحاء تطوان.

2- أبو القاسم سعد الله، م، ن، ص 49.

3- الرحلة، ص 256.

4- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، ص 50.

5- م، ن، ص 50.

خُصُوصًا بِمَوْلَانَا الْخَلِيفَةُ تُوجَّتْ رُؤُوسُ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامَتْ إِلَى الْفَخْرِ
أَمَوَّلَايَ عَبْدُ اللَّهِ طَبْتُ أَبْوَةً وَأُمَّا، فَهَلْ مِثْلَ الْخَلِيفَةِ فِي الْعَصْرِ⁽¹⁾
يتضح لنا من خلال هذه الأبيات أن ابن حمادوش أدخل نفسه في جملة
الأشراف حين قال: "أنهم الياقوت فينا إلى الحشر" وفي هذا دليل على تمسكه
بالشرف وبنسبته إلى آل البيت.

2- الفكر العلمي:

ليس بصحيح القول إن العرب لم يأتوا بشيء جديد ولم يضيفوا شيئاً
يذكر على التراث اليوناني اللاتيني، "ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة
من الكتب القديمة، ولكن ليس من العدل أن نقول أنهم لم يكونوا إلا وسطاء وأنهم
لم يكونوا يعلمون ما يترجمون ولم يكن عندهم روح التوليد وعلى هذا ... أن العرب
لم يقتصروا على حراسة كثر المعارف الذي عثروا عليه، بل أضافوا إليه ووسعوه،
وفتحوا طرقاً جديدة في أسرار الطبيعة"⁽²⁾.

إذن، لم يكتف العرب بالترجمة وحدها، بل وسعوا عملهم وأكثروا من البحث
والتنقيب في شتى المجالات، "فلقد وهب الله كلاً منا حواساً خمساً وعقلاً، فلنلاحظ
ملاحظة حسية عقلية الظواهر الطبيعية والإنسانية التي تحدث حولنا، ثم لتبين العلاقة
بين وقائع الظاهرة التي نلاحظها"⁽³⁾، من خلال التجربة.

1- الرحلة، ص 117.

2- د. أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، ص 461، 462، د/ط، مطبعة طربين، مصر،
1386هـ - 1967.

3- خير الله عصار، العلم التجريبي، ص 87، مجلة الثقافة (مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر)،
السنة العاشرة، العدد 58، شعبان رمضان 1400هـ، يوليو آب، 1980.

لذلك قرر علماء العرب الأوائل "تقريراً صريحاً المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم، وهي السير من المعلوم إلى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة، إلا بعد ثبوته بالتجربة"⁽¹⁾.

واعتماداً على ما سبق يمكن القول: إن الرحلة تعتبر عماد التلاقي والاتصال وأساس المعرفة والاطلاع، فهي تساعد على تنمية المعارف وتطويرها وتساهم في تهذيب النفوس وتقويم الطباع، ولذلك تعتبر الرحلة "أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان"⁽²⁾، فالسفر درس تجريبي ومدرسة تعلم الناس وترشدتهم إلى الصواب، ولهذا "إن السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير"⁽³⁾.

إن أهم ما يلفت النظر في دراستنا لابن حمادوش هو اهتمامه العلمي، وشدة ملاحظته على ما حوله من الطبيعة والناس، إذ نجده في رحلته إلى المغرب "يسجل ملاحظاته العلمية، ويؤلف الرسائل، ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين"⁽⁴⁾، فرغم ظروف العصر الذي تميز بنوع من الركود بسبب "هبوط في مستوى التعليم وجهل الحكام وانغلاق باب الاجتهاد والاعتماد على النقل وحده"⁽⁵⁾ نلاحظ أن بعض العلماء كانوا يجتهدون ويحاولون الخروج من هذا الحصار العقلي حيث نجد ابن حمادوش مثلاً "يشغل بالعلوم كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها، ويجانب خط علماء عصره"⁽⁶⁾.

1- أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، م، س، ص 461.

2- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص 25، د/ط، عالم المعرفة، الكويت، 1989.

3- م، ن، ص 92.

4- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، م، س، ص 207.

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج 1، م، س، ص 449.

6- م، ن، ص 454.

فلقد وصف ابن حمادوش نفسه سنة 1145هـ، بأنه عشاب وصيدلاني وطبيب ولم يكن عمره عندئذ سوى ثمان وثلاثين سنة، حيث قام بعدة أبحاث وتجارب ضمنها في الرحلة، يقول: "فاليوم والحمد لله أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"⁽¹⁾.

من خلال الرحلة يبدو لنا أن ابن حمادوش كان يتتبع المبادئ الأساسية في البحث العلمي، إذ نجده يعتمد على الملاحظة والتجربة، ويهتمنا هنا أن نشير إلى أن الملاحظة "وسيلة أساسية من وسائل البحث العلمي"⁽²⁾، أما التجربة فتعتبر نتائجها، "أكثر صدقا من الملاحظة، لذلك يختبر صدق العلاقة التي لوحظت بتجربة إن أمكن، فإذا حصلنا على نتائج موحدة المرة تلو المرة يصبح ما حصلنا عليه حقيقة علمية"⁽³⁾.

ففي سفره (ابن حمادوش) من تطوان إلى فاس والعودة سجل ملاحظاته على المروج التي مرّ بها وطيور الماء التي شهدها، إذ يقول: "ومن غريب ما رأيت غرتين كل واحدة في أفصحها فوق الماء تحضن بيضها، فلما بلغت المبيت، شهد أهل الحي كلهم كبيرهم وصغيرهم، أن الغر وبوغطاس وطيور (كذا) آخر لا يلدون إلا فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حسير من الكأ، ثم يبنون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون، ولا يمس بيضهم الماء، وإن مسه الماء فسد، فإنها تبني بناءً صحيحاً جداً، وأتونا ببيض الغر، عظمه كبيض الدجاج، ولونه كلون بيض الحجل إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط سوداء، والغر طائر قدر الدجاج

1- الرحلة، ص 164.

2- عمر محمد التومي الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، ص 212، د/ط، ليبيا، د/ت.

3- خير الله عصار، العلم التجريبي، م، س، ص 87.

أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء، وأمّا البط والغرنيق شبهه فإنه يلد في الجزائر في وسط الماء لا على الماء⁽¹⁾.

لاحظ ابن حمادوش أنّ الغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء، وقال أنّ بيضه كبيضة (الدجاج)، إلاّ أنّ لونه كلون بيض الحجل، ومع ذلك فهو أشدّ بياضا وفيه نقط سوداء، ونجد فعلا أنّ "الغر بضم الغين ضرب من طيور الماء أسود الواحدة، غرة الذكر والأنثى في ذلك سواء"⁽²⁾.

غير أننا يجب أن نميز بين طائر الغر وطائر الغرنيق، فالغر - كما سبق وذكرنا - طائر قدر الدجاج وهو أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء، بينما الغرنيق "بضم الغين وفتح النون... طائر أبيض طويل العنق من طير الماء"⁽³⁾.

ونجد أنّ الغرنيق يختلف كذلك عن الغر في حجمه أيضا حيث أنّ "الغرنيق... قدر البط"⁽⁴⁾ - إذن - فالغر والغرنيق هما من طيور الماء التي شاهدها ابن حمادوش خلال تنقله من تطوان إلى فاس، وتجدر الإشارة هنا إلى أنهما "من الطيور القواطع* وليست من الأوابد، وإنها إذا أحست بتغير الزمان اعتزمت على الرجوع إلى بلادها وأوكارها"⁽⁵⁾، أي أنها من الطيور المهاجرة.

1- الرحلة، ص 73.

2- كمال الدين محمد بن موسى الدّميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص100، ط3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1376هـ-1956م.

3- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج3، ص328، ط1، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1356هـ-1938م.

4- كمال الدين محمد بن موسى الدّميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، م، ن، ص101.

* - أي التي تقطع إلى الناس مسافات طويلة، وذلك في أوقات معينة من السنة.

5- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج5، ص538، ط1، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1362هـ-1943م.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أنه يُمكننا أكل لحم هذه الطيور (الغر والغرنيق)، "فيحل أكل الغرائيق لأنها من الطيبات"⁽¹⁾، ولقد سبق وأن أشرنا إلى أن ابن حمادوش اجتهد في هذه المسألة الفقهية، حيث لا يحل لنا أكل الميت من هذه الطيور.

يظهر لنا - من خلال ما سبق ذكره - أن صاحب الرحلة أسهم من خلال ملاحظاته هذه، في تقديم معلومات وحقائق عن طيور الماء الموجودة في المغرب أثناء تواجده فيه، مشيراً إلى أنها تعيش في الماء والبر معاً، كما أنها تبيض وتتكاثر فوق الماء مُنَوِّهاً إلى أنه لاحظ نفس الشيء عن هذه الطيور في الجزائر، وبهذا نستطيع القول أن ابن حمادوش زوّدنا بحقائق علمية يمكن للباحث في علم الحيوان الاعتماد عليها.

سجل مؤلف الرحلة أيضاً إعجابه الشديد بقوارب الصيادين الموجودة في هذا المرج وقال إنهم: "يصطادون بها السمك والطيور والبيض ويتعدون عليها من ناحية إلى أخرى، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره، وهي من حزم البردي: يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطاً، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالاً، ووسطها منخفض، ويحملون ذلك بالربط من مقدمها، ويشدون ربط الكل ويركب فيها ويمسك في يده عوداً طويلاً يكتد به ولا يقذف، وهذه صفة القارب المذكور، وتلك الخطوط المحوكة داخله هو موضع ربطه بالحزم، بحبال الدوم الرقاق، وهذا غريب جداً، ما رأيت مثله قط، ولا يضع تحته لا قرع ولا قرب بخلاف ما يوجد في النيل، فإنه لا يبلغ هذه الصحة"⁽²⁾.

نلاحظ أن ابن حمادوش خلال عبوره لهذا المرج قارن بين قوارب الصيد الموجودة فيه، وبين تلك الموجودة في نهر النيل، مبدياً إعجابه الشديد بطريقة صنع هذه القوارب*، حيث يشكل البردي المادة الأولية في الصنع، والبردي "نبات

1- كمال الدين محمد بن موسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، م، س، ص104.

2- الرحلة، ص74.

* - قدم ابن حمادوش ربما توضيحاً لهذا القارب، يراجع الرحلة، ص74.

كالقصب"⁽¹⁾ يرتفع "إلى ما يزيد على ضعف طول قامة الإنسان ... بيئة النبات برك ومستنقعات ومجاري مياه سائلة عذبة وبقايا سيول ومنخفضات"⁽²⁾، فيمكننا أن نتصور الحياة البرية والطبيعة التي تتميز بها هذه الأماكن.

ونظراً "للامتلاء الملحوظ في ساق النبات إلى جانب أن هذه الساق أسطوانية ناعمة الملمس"⁽³⁾، كان القارب المصنوع من نبات البردي في نظر ابن حمادوش متميز عما كانت عليه القوارب في نهر النيل.

وبهذا نستطيع القول إن مؤلف الرحلة كان يعتمد على المقارنة العلمية المبنية على الأدلة، حيث كان مهتما بإظهار أوجه التشابه والاختلاف حول ما يلاحظه من ظواهر سواء أكانت طبيعية (مثل طيور الماء)، أم من صنع الإنسان (مثل قوارب الصيد).

شاهد ابن حمادوش أثناء خروجه من فاس أيضاً، الكثير من الأشجار فكان يتأملها، "ويذكر خصائص كل نوع ويقارن ذلك بما في بلاده من نفس النوع وما يشد عنه"⁽⁴⁾، فقد لاحظ أن شجر الدلم مثلاً في المغرب طويل جداً، فقال: "أنه شجر يطول جداً وورقه أكبر من ورق الدردار وصفته بين ورق البلوط وورق الدردار، وله ثمرتان إحداهما عفص كبير أكبر من العفص التركي والأخرى بلوط حلو يأكل، سبحان من هو على كل شيء قدير"⁽⁵⁾.

1- جبران مسعود، الرائد: معجم ألفبائي في اللغة والأعلام، م، س، ص 196.

2- د. حسن مصطفى حسن، نباتات في الشعر العربي، ص 40، ط 1، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1415هـ-1995م.

3- م، ن، ص 41.

4- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 35، 36.

5- الرحلة، ص 99.

ويذكر ابن حمادوش أنه اضطر إلى المبيت في إحدى البساتين _ خلال خروجه من فاس _ رفقة جماعة من الحمارين فسجل اندهاشه الشديد مما فعلوه حيث "تمكنوا من هرة ذبحوها وأكلوها"⁽¹⁾، غير أننا نلاحظ أن هذا لم يمنعه من تسجيل ملاحظاته العلمية حولها أيضاً، فقال عنها أنها "كانت كلها شحمًا من شدة السمن وأمعائها كأمعاء بني آدم واحد وليست هي وحشية وإنما هي إنسية في الغالب، فطبخوها وأكلوها ونحن ننظر"⁽²⁾.

وتجدر الإشارة هنا على أن غيره من العلماء قد لا يهتم بمثل هذه الملاحظات ولا يأخذها مأخذ الجد، بل ينفر عن مثل هذه الظواهر، في حين أننا نجد ابن حمادوش لا يكتفي بالملاحظة والملاحظة العقيمة بل يقوم بالتعليل عليها.

وهكذا وجدناه سواء أكان في الجزائر أم خارجها كان لا ينفك عن تسجيل ملاحظاته على النباتات والحيوانات حيث نجده يقوم بدراسة الأعشاب الطبية للتوصل إلى منافعها وكيفية "تركيب المعاجين المناسبة منها للتداوي بها، ومن ثمة كان صادقاً حين وصف نفسه بالعشاب والصيدلاني والطبيب"⁽³⁾.

وقد ذكر في الرحلة أنه كان يخرج بعد عودته إلى الجزائر مع بعض العشابين إلى الجبال، ليقطعوا بعض النباتات والأعشاب الطبية وقال أنه كان حريصاً على ملازمتهم ليتعلم منهم، يقول: "خرجت مع بعض الأخوان، أحدهم يعرف الأعشاب لتتعلم منه فتعلمت الأفثمون*، قطعنا منه ما شأننا في جبل بومعزة تحت

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 36.

2- الرحلة، ص 99.

3- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، ن، ص 36.

*- يمكن أن تقرأ أيضاً الأفيون، يراجع الرحلة، هامش، ص 120.

بوزريعة"⁽¹⁾، لم يفصح مؤلف الرحلة عن اسم هذا المعلم غير أنه قال في مناسبة أخرى أنه خرج مع السيد كحنجل "وكان عشاب بلدنا، لتتعلم منه العشب، فتعلمت ما تيسر مع ما كنت تعلمت من غيره، فالحمد لله على ذلك"⁽²⁾.

كالعادة نلاحظ أنّ ابن حمادوش كان لا يكتفي بالتعلم النظري وحده سواء أكان ذلك من العلماء أم من مطالعته للكتب المختلفة العربية والأجنبية، بل نجده يطبق ما تعلمه عملياً حيث قام بتركيب المعاجين الطبية في دكانه، ولهذا نستطيع القول أنّ هذا الدكان يعد بمثابة المختبر الطبي، الذي تجرّى فيه التجارب، ولقد قال ذات مرة أنه استطاع تركيب معجون سماه (معجون الصلاح) وأكد أنّ أحداً لم يسبقه إليه، فقال: إنّ ركه "على منوال معجون الفلاسفة لكن لم أسبق به وسميته معجون الصلاح ومعجون الواحد، لأنّ عدد وزنه يجمعها واحد"⁽³⁾.

كما قام أيضاً بتركيب الأشربة الطبية فقد ذكر "أنه أخذ شراب المصطكي عن الحكيم المغربي عبد الوهاب أدراق*، وتمكن من طبخه وجعل منه شراباً يعتبر في نظره من أفخر الأشربة"⁽⁴⁾، ووصف لنا الكيفية التي يحضر بها فقال: "وصفته أوقية مصطكي تطبخ في خمسة أرطال ماء حتى يبقى أقل من النصف، ثم يصفى ويلقى عليه مثله عسل متزوع الرغوة ويطبخ حتى يكون في قوام الأشربة ويحفظ، فتلقى أوقية منه في رطل من الماء ويشرب وهو نافع جداً وبالله التوفيق"⁽⁵⁾.

1- الرحلة، ص 120.

2- م، ن، ص 164.

3- م، ن، ص 121.

*- من أبرز أطباء عصره، توفي في سنة 1156هـ، يراجع عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج1، ص 290،

ط2، بيروت، 1961.

4- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 37.

5- الرحلة، ص 121.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن "المُصْطَكِي والمُصْطَكَاء شجر كالبطم له ثمر يميل إلى المرارة، يستخرج منه صمغ يعلِّك"⁽¹⁾، والبَطْمُ شجر يشبه شجر الفستق له صمغ قوي الرائحة وعناقيد ذات حب صغير أحمر أو أزرق أو أبيض"⁽²⁾.

الظاهر أن ابن حمادوش استطاع تركيب مشروب مزج فيه بين المصطكي والعسل، وبهذا أكد لنا فعلاً اهتمامه بعلم الصيدلة، فهو كان يبحث عن كيفية استخلاص الأدوية وتركيبها من الأعشاب، كما بحث أيضاً عن طريقة حفظها لمدة طويلة حتى لا تفسد.

كما نجد ابن حمادوش من خلال الرحلة يقوم بتجارب أخرى على المياه، حيث لاحظ أن أوزنها مختلفة، فقد رسم مجوفا* من زجاج ثم وضع فيه حبات دقيقة من الرصاص الرقيق، " فإذا كان الماء أثقل منه غرق في الجوف بِقَدَرٍ ثقله أمّا بدرجة أو درجتين أو أكثر، فماء الحامة عندنا وماء تالاملي، أسماء مائين، من أعدل الأمياه عندنا"⁽³⁾، من خلال ما سبق نستنتج أن ماء الحامة والتالاملي* في مدينة الجزائر من أعدل المياه، لأنه أثقل من ماء البحر.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن مؤلف الرحلة نجده مهتماً بما أسماه علم البونبة، أو كيفية رمي القنابل "وكان قد تعلم ذلك نظرياً من كتاب لعبد الرحمن الفاسي"⁽⁴⁾، ولكنه أراد أن يتعلمه عملياً أيضاً"⁽⁵⁾، فذكر أنه خرج إلى باب الجزيرة مع العلاج

1- جبران مسعود، الرائد: معجم ألفبائي في اللغة والأعلام، م، س، ص 825.

2- م، ن، ص 203.

*- قدم ابن حمادوش رسماً توضيحياً للمجوف، يراجع الرحلة، ص 219.

3- الرحلة، ص 219.

*- التالاملي تنطق اليوم التلملي.

4- هو عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، ألف في عدة علوم كالطب والإسطرلاب والفلك، توفي في سنة

1096هـ، يراجع خير الدين الزركلي، الأعلام، ص 82، ط3، بيروت، 1969م.

5- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 38.

حسن وهو اختصاصي في هذا الميدان، حيث رمى العليج بونبة واحدة، لاحظ ابن حمادوش أنها كانت قوية جدا لدرجة أن المهرّاز انفجر إلا أنها كما قال لم تصب الهدف المحدد لها، يقول: "رمى العليج حسن بونبة واحدة... ارتفاعها ثلاثة وأربعون، وعمّر المهرّاز بأربعة أرتال بارود فانشق المهرّاز ولم يعد ولم يصب الغرض، وتعلمت عيانا ما كنت قيدت عن سيدي عبد الرحمان الفاسي"⁽¹⁾، لم يحدد ابن حمادوش الوحدة التي قاس بها ارتفاع البونبة، ولعله يقصد (ثلاثة وأربعون متراً).

كما يذكر أنه خرج مرة ثانية إلى باب الواد مع محمد بن البونباجي ليتعلم منه رمي البونبة، فلاحظ أن المهرّاز الذي استعمله معلمه في هذه المرة صغير، وشاهد كيفية تعميره بعجن البارود، وفي نهاية هذه التجربة صرح قائلاً: "...فتممت ما بقي لي، والحمد لله، وأخذت علم البونبة وتعميرها ورميها وعجن بارودها، فأنا من علامائها والحمد لله، وجمعت فيها إلى تأليف سيدي عبد الرحمان الفاسي"⁽²⁾.

بهذا جمع المؤلف بين ما تعلمه نظرياً من تأليف عبد الرحمان الفاسي وما تعلمه تطبيقياً على يد العليج حسن، ومحمد بن البونباجي فأصبح بذلك ملماً بعلم البونبة كما يسميها.

لم يكن ابن حمادوش - فيما يبدو - مهتماً بعلم معين من العلوم بل كان يبحث في علوم كثيرة، ومن ذلك مثلاً ما يسميه هو بعلم البلوط، والذي عرفه بأنه معرفة الطرق البحرية، وصرّح بعد ذلك أنه تمكن من الإلمام به، حين قال: "أنّ يدي قد صَحَحَتْ في هذا العلم"⁽³⁾.

إلى جانب ذلك أيضاً نجده مهتماً أيضاً بالهندسة، حيث صنع كارتة كما يسميها هو، لتحديد اتجاهات رياح البحر، ووصفها بأنها "صنعة هندسية سهلة المأخذ:

1- الرحلة، ص 253.

2- م، ن، ص 254.

3- م، ن، ص 255.

تدور دائرة بقناص بلا حبر، ثم تخط من كل ناحية من نواحيها الأربع خطا أسودا، تصير الدائرة خطوطا مربعة، ثم تقسم الدائرة على اثنين وثلاثين قسما متساوية، وتخط خطوطها بعد أن تجعل مركزها دائرة ومركز كل قسم كذلك، وتخط من كل إلى الأخرى خطا، تكون⁽¹⁾، أي فينتج من ذلك شكل الخارطة*.

بالإضافة إلى ذلك اهتم صاحب الرحلة بعلم الفلك أيضاً، حيث تعلم فيه سبعة تواريخ وهي: "العربي، والمسيحي والاسكندري... الفارسي والملكي والقبطي والعبري"⁽²⁾، ونلاحظ أنّ المؤلف كان كعادته حريصاً على لقاء العلماء، فذكر أنّه عندما وصل إلى فاس سمع أنّ بها منجما "واسمه سيدي محمد القسنطيني، فلقيته في هذا اليوم وتكلمت معه في هذا الأمر، فوجدت عنده دعوى أكبر من علمه"⁽³⁾، ويخبر هو في رحلته أنّه عندما أحضر له النصبات (الجداول والعمليات الفلكية)، "لم يدر بما يحكم... ولم أجد عنده من العلم ما يغني، ففارقته"⁽⁴⁾. بهذا تفوق مؤلف الرحلة على منجمي وفلكي عصره، فعندما كان في تطوان لم يجد من يتقن علم الفلك، يقول: "وسألت عن علم الفلك فلم يكن له متقن"⁽⁵⁾، وهذا دليل آخر على أنّ المؤلف كان "يجانب خط علماء عصره"⁽⁶⁾، فابن حمادوش لم يختص بعلم معين فهو كان كما وجدناه من خلال رحلته فقيهاً ورياضياً وطبيباً وصيدلانياً وفلكياً أي أنه كان ملماً بعلوم كثيرة، وهذا "مما يثير الإعجاب اليوم

1- الرحلة، ص 255.

*- قدم ابن حمادوش رسماً توضيحياً للخريطة، يراجع الرحلة، ص 255.

2- م، ن، ص 264.

3- م، ن، ص 80.

4- م، ن، ص 81.

5- م، ن، ص 71.

6- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، م، س، ص 451.

ويدهش علماء النفس والتربية خصوصاً المتطرفين في الدفاع عن ميدان التخصص في سن مبكرة⁽¹⁾، وهذا يعكس لنا فعلاً شخصية المؤلف العلمية.

3- الفكر التجاري:

ينتمي ابن حمادوش - كما سبق وذكرنا - إلى عائلة كانت تمارس حرفة الدباغة، أي صناعة الجلود، ولقد "كان أصحاب الحرف منتظمين في تعاونيات وعلى كل تعاونية مسؤول يمثلهم لدى السلطة، وكانوا في الغالب من أغنياء الناس، غير أن ابن حمادوش عاش فقيراً، لأنه امتهن العلم لا الدباغة"⁽²⁾.

يبدو أن صاحب الرحلة لم يهتم بممارسة حرفة أسرته (الدباغة) وهي حرفة كانت تجلب لأصحابها دخلاً طيباً، لأنّ تجارة الجلود كانت رائجة مع أوروبا⁽³⁾ في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، ومع ذلك لم نجده في متن الرحلة يتحدث عن هذه الحرفة، وإنما تحدث عن حرفة أخرى كان يمارسها، وهي تجليد الكتب ونسخها أي امتهن حرفة الوراقة حيث روى "عن نفسه أنّه كان يشتغل بالكتب بيعاً وتجليداً ونسخاً في مدينة الجزائر، وأنه كان يملك دكاناً لهذا الغرض قبالة الجامع الكبير، وكان في الجزائر سوق يدعى سوق الوراقين"⁽⁴⁾.

من خلال ما سبق يمكننا القول إنّ الحياة الاقتصادية في الجزائر عرفت "مكانة لا بأس بها، وكانت تسد في أغليبتها حاجيات السكان، فلم تكن الصناعة متطورة بالمفهوم الحالي، فارتكزت على الصناعات اليدوية"⁽⁵⁾، مثلما لاحظنا من خلال الرحلة، حيث أنها كانت تشمل صناعة الجلود والنحاس والوراقة وغيرها.

1- محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، م، س، ص 193.

2- الرحلة، ص 09.

3- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، م، س، ص 206.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، م، س، ص 292.

5- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، م، س، ص 106.

رغم أن المؤلف ذكر بأنه كان يشتغل بالكتب إلا أنه عاش حياة مليئة بالفقر والضيق، ويبدو أن هذه الحرفة لم تكن أيضًا "حرفة رابحة لأن شكواه من حالته المادية كانت مستمرة"⁽¹⁾، فبقي الفقر يلزمه.

وعلى أمل تحسين وضعه الاقتصادي رحل المؤلف إلى المغرب طلبًا للعلم والتجارة معًا - كما سبق وأشرنا - وذكر أنه انتقل إليه على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاث تجار جزائريين "وكانت أول نقطة في المغرب تطوان... ومن هنا بدأ يسجل ملاحظاته على القطر، ابتداءً من عادة المكس بتطوان نفسها"⁽²⁾، وكانت عادة المكس بميناء تطوان من بين العادات السيئة التي استهجنها وهي في نظره "عادة قبيحة بتطوان ابتدعوها، أنهم يأخذون كل ما معك، ويحملونه إلى دار العشر"⁽³⁾، ثم بعدما تنقضي أشغالهم من البحر تأتي العدول⁽⁴⁾ التي كتبت في البحر فتقابل كتابها مع العدول الذين بدار العشر، ثم يدفعون ما لا منفعة لهم فيه، ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل فيفتحون كل ما معك ويأخذون خمسة لكل مائة مكسا، وتدفع من يدك زائداً على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال والقواني"⁽⁵⁾.

ذكر صاحب الرحلة السلع التي أخذها من الجزائر لبيعها في المغرب فوصفها قائلاً: "كان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزيينة ششية تونسي وسبع عشر حزام حرير وقصاب زبد، فأخذ في المكس مني حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزيينات وواحدة"⁽⁶⁾.

1- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، م، س، ص 206.

2- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، م، س، ص 99، 100.

3- أي الجمارك أو الديوانة.

4- أي مفتشي البضائع في الميناء.

5- الرحلة، ص 31، 32.

6- م، ن، ص 32.

نفهم من كلامه أن التزينة تعني اثني عشر شاشية، فسلعته لم تسلم من المكس أيضاً، ولهذا ذكر أنه دفع ما فرض عليه من المكس، كما يتضح أيضاً أن عادة المكس في تطوان حسب رأيه كانت من بين الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة في المغرب "ذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفى كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس"⁽¹⁾، التي أرهقت كاهل أهل تطوان .

ونحن نعلم "أن الحروب الأهلية من أعظم المصائب التي تصاب بها الشعوب"⁽²⁾ لما تخلفه من خراب ودمار وخسائر بشرية حيث "مات فيها نحو أربعة آلاف ففوق"⁽³⁾، كما كان لهذه الثورة تأثير سيء على الاقتصاد حيث تعطل الأسواق وتشل المبادلات التجارية من بيع وشراء، يهمننا هنا أن نشير إلى أن مؤلف الرحلة عاش أوقاتاً صعبة في المغرب بسبب الحاجة والخسارة، وذلك لأنّ تواجهه بالمغرب تزامن مع اندلاع هذه الثورة لسوء حظه، فذكر أنّه خرج ذات مرة إلى السوق إلاّ أنّه عاد حزيناً، "لقلة ذات يدي لأنّ كلما عندي سلعة كاسدة لا يمكن أن يأخذ منها خبزة...، وقلة ما يباع واشتغال الناس بشؤونهم"⁽⁴⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اقتصاد الجزائر في تلك الفترة لم يكن أفضل حالا مما هو عليه اقتصاد المغرب، حيث "تحدث الكتب والوثائق عن وقوع الجوانح في العهد العثماني والنتائج التي تخلفها في الأرواح وفي الحياة المادية، ولم يكن ذلك مقتصرًا على العاصمة، بل كان شاملاً لجميع أنحاء البلاد، وتشمل هذه الجوانح الطاعون... والزلازل والجفاف والمجاعات الكبيرة والجراد"⁽⁵⁾.

1- الرحلة، ص75.

2- محمد داود، تاريخ تطوان، ص230، ط2، القسم الثاني، المجلد الثاني، دار كريماديس، تطوان، 1382هـ-1963م.

3- الرحلة، ص95.

4- م، ن، ص108.

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، م، س، ص267.

وفعلا أصيب الجزائريون في عهد الأتراك بمرض خطير "وهو الطاعون أدى إلى مقتل العديد من السكان، كما ضرب مدينة الجزائر سنة 1716م زلزال عنيف هدم منازل كبيرة وتوفي خلق كبير"⁽¹⁾.

نجد في الرحلة حديثا عن الطاعون والذي يسميه المؤلف بالوباء، وذكر أنّ هذا المرض كان سببا في منعهم من دخول تطوان أثناء وصولهم إلى الميناء "خرج لنا راييس المرسى فسألنا، فلما أخبره راييسنا افرانصيص* وأنه في كروة أهل الجزائر: الحاج عبد القادر بن كرشال وأبي صابر التلمساني وحاج عبد السلام السفاسي⁽²⁾، قال له أبعد عن المراكب ولا يتزل أحد إلى البر، لما كان في أهل الجزائر من وبى"⁽³⁾.

أشار مؤلف الرحلة إلى أنّ هذا المرض كان سببا أيضاً في منع مركب محمل بالحجاج قادم من الإسكندرية سنة 1157هـ يقول: "وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليه قدم علينا مركب من الإسكندرية بالحجاج، وفيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول، حمية من أن يقوم ممرض على مصح"⁽⁴⁾، وفي هذا الصدد نشير إلى أن هذه الأمراض كانت تنتقل نتيجة الاتصال المباشر، مما يعني أنّ الجزائر كانت منفتحة على المبادلات التجارية، "فهى ملتقى العديد من التجار من مختلف مدن البحر المتوسط، ومحطة استقبال للعديد من الحجاج... فمثل هذه الأمراض كانت سببا مباشرا في الركود التجاري والصناعي... ذلك أنّها كانت تهلك عددا كبيرا

1- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، م، س، ص 107.

*- أي أن قائد السفينة كان من الفرنسيين.

2- هؤلاء هم التجار الثلاثة الذين سافر ابن حمادوش معهم.

3- الرحلة، ص 30.

4- م، ن، ص 121.

من الصناع والتجار"⁽¹⁾، فالالاقتصاد يتأثر بظروف وأوضاع البلاد المختلفة سواءً كانت سياسية (الثورات والحروب الأهلية)، أم صحية (الأمراض والأوبئة).

من خلال الرحلة يكشف لنا صاحبها عن نوعية التبادل التجاري في ذلك الوقت، فيخبر هو عن نفسه أنه قايط جميع سلعته — كما سبق وأشرنا إليها — "بمائة وخمس أذرع ملف وردي بل عكري وسبعة وثلاثين رطلا ونصف قشينية، فهذا جميع ما قطعه سلعتي"⁽²⁾.

فالمبادلات إذن كانت تنظم بين التجار "داخل أسواق أسبوعية يتم فيها تبادل السلع بالنقود أو المقايضة"⁽³⁾ أي تبادل سلعة بسلعة، كما يكشف لنا صاحب الرحلة عن نوعية النقود المغربية في ذلك العصر، يقول: "نزلت بفندق السرائري* في بيت مقابلة عين الشمال، كرائها ستة عشر موزونة في كل شهر"⁽⁴⁾، لقد كان المؤلف شديد الملاحظة حيث رأى غلاء الأسعار في الأسواق وتعرض إليها في الرحلة حيث ذكر النقود التي كان يضطر إلى دفعها، فذكر أنه عندما كان متوجها إلى مكناس قطع وادي سب "بقارب من عود يحمل خمس بهائم وخمسة أحمال وسبعة رجال، يأخذ موزونة ونصفا، لكل حمل أجرة"⁽⁵⁾.

فغلاء الأسعار وارتفاع قيمة الضرائب كانت من بين الأمور التي لاحظها ابن حمادوش في المغرب، ونجده يذكر أنه عندما أراد العودة إلى الجزائر حاول التهرب

1- د. ناصر الدين سعيدوني، الحياة الاقتصادية بعناية أثناء العهد العثماني، العدد 34، ص 95، 96، السنة

الخامسة، مجلة الأصالة، الجزائر، جمادى الثانية 1396هـ — يونيو 1976.

2- الرحلة، ص 98.

3- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، م، س، ص 106.

*- هو من شيوخ المؤلف، كان له الفندق المذكور، توفي يوم الخميس 17 شوال 1157هـ.

4- الرحلة، ص 32.

5- م، ن، ص 74، 75.

من دفع المكس على بضاعته في مرسى تطوان يقول: "وكان لي ما ذكرت أولا من الملف والقشينية وكنت أخذت ذلك من الخواجة الحاج عبد الخالق عديل*، واشترطت عليه أن لا ندفع عليها مكسا في مرسى تطوان، فكتب لي بذلك لصاحبه الحاج الطاهر السخسوخ القصري، فلما وصلت إليه قبض الورقة وأجاز ذلك، فلما حان السفر لقيني، فقال لي: أن الأمر قد انتقل من أيدينا"⁽¹⁾.

يبدو أن التوصية التي جاء بها المؤلف إلى المكاس، لم تنفعه في التهرب من دفع الضرائب على بضاعته، ومع ذلك نلاحظ أنه لم يقف عاجزا أمام هذه المشكلة، يقول: "فلما حان السفر ذهبت إلى الشيخ سيدي أحمد الورززي، فكتب له أن لا يتعرض لي في شيء، وقال له، من جملة ما كتب: أن هذا اجتمعت فيه ثلاث خلال كل واحدة منها لو انفردت لأوجبت عليك أن لا تتعرض له في شيء: الأولى، النسب، رجل شريف من آل بيت النبوة، الثانية أنه رجل عالم، الثالثة: قلة ذات اليد، فعفى عني وسامحني بعد أن طلب مني أن أحصي له ما عندي"⁽²⁾.

الظاهر من كلامه أنه لم يقطع صلته بالشيخ الورززي، بدليل أن هذا الأخير توسط له كي يتخلص من المكس، كما نجد المؤلف أثناء عودته إلى الجزائر يحاول أيضا التهرب من دفع الضرائب يقول: "فتحت دكاني وكنته وجلسته فيه...، وكان لي تلميذ، ابن عمي، يصطحب مع خوجة الملح، وكان أذاك عالج الباشا إبراهيم، فطلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة سلعتي، فترل إليه وجلس عنده حتى وجهتها له هنا، فأدخلها مخزنه وبعثها مع أحد خدامه، فلم يمسه صاحب الباب، فسلمت من المكس"⁽³⁾.

*- من أعيان المغرب وتجارها توفي في سنة 1157هـ.

1- الرحلة، ص 112.

2- م، ن، ص 112.

3- م، ن، ص 114.

رغم صراحة المؤلف واعترافه الواضح بأنه قهرّب من دفع المكس على سلعته في الجزائر أيضاً، فإنّ هذا يعتبر دليلاً على الفساد المتفشي في النظام كله فخوجة الملح هو أحد أعوان الباشا نفسه، والمؤلف استعان بقريبه على خوجة الملح (أو مدير الديوانة) لمنحه تصريحاً بإخراج بضاعته من الميناء دون دفع المكس عليها.

من خلال ما تقدم نستنتج أنّ مؤلف الرحلة جمع بين التجارة والعلم فهو حين اهتم بالصيدلة، ركب المعاجين وصنع الأشربة لبيعها، وحين اهتم بالكتب، نجده ينسخها ويجلدها ويبيعها أيضاً، وهكذا زواج ابن حمادوش في شخصيته بين الرجل التاجر والعالم.

الفصل الثاني

موضوعات الرحلة

- | | |
|----------------|----------------------------|
| أ- فنون النشر | ب- أغراض الشعر |
| 1- المقامات | 1- الممدح |
| 2- الرسائل | 2- الحنين إلى الأهل والوطن |
| 3- التقارير | 3- الفخر والهجاء |
| 4- عقود الزواج | 4- الرثاء |
| 5- الإجازة | 5- الألفاظ |
| 6- القصص | |

تحتوي الرحلة على كثير من الموضوعات التي قد تهم الجغرافي والمؤرخ والعالم الاجتماعي والأديب، فهي عبارة - إذن - عن "كشكول فيه خليط من الحوادث والأفكار والنقول والمذكرات"⁽¹⁾ اليومية وغيرها، لهذا نلاحظ عندما نقرأ الرحلة أن هذه الموضوعات غير مترابطة وذات اتصال ضعيف فيما بينها، إلا أنها رغم ذلك تعطينا صورة واضحة عن ابن حمادوش كما هو في شخصه وذوقه وتأليفه.

الظاهر أن صاحب الرحلة قد جمع في طريقة تناوله لهذه الموضوعات بين النشر والشعر، محاولاً بذلك محاكاة أساليب الأدباء المتقدمين والمعاصرين له، أمثال ابن ميمون، وابن عمار، وابن علي وغيرهم.

أ- فنون النشر:

نشير هنا أننا نعني "النشر الفني أو الأدبي، وهو يشمل المقامات، والرسائل... والتقاريظ، والتعازي وعقود الزواج التي تفنن فيها أصحابها، والايجازات المنمقة... والقصص"⁽²⁾، ولقد عثرنا على هذه الفنون النثرية في متن الرحلة، ولنبدأ بـ:

1- المقامات*:

تعتبر المقامة من "الفنون التعليمية التي وجدت لها وسيلة في اللغة العربية، تخلقت من أمشاج عربية لغوية وأدبية وقيم اسلامية وإنسانية عامة"⁽³⁾، ولقد

1- الرحلة، ص 24.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص 271.

* - مفردتها مقامة، وهي المجلس، وسميت مقامةً ومجلساً لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يكون تارةً جالساً، وتارةً قائماً، يراجع الشريشي أحمد، شرح مقامات الحريري، ج1، ص14، د/ط، مطبعة المنيرة، القاهرة، 1983.

3- عبد السلام عبد الحكيم العبد، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث، ص25، د/ط، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1989.

وجدنا في الرحلة ثلاث مقامات كتبها ابن حمادوش على ما يبدو وهو في المغرب، لذلك فهي "تصور تجربته الشخصية وتعكس وعيه الخاص وأجواءه الذهنية"⁽¹⁾، كما أن هذه المقامات الثلاث تعطينا صورة واضحة عن شخصية ابن حمادوش الأديب الساخر من الناس والحياة.

فالمقامة عادة تسرد حكاية أدبية لغرض من الأغراض، فالمقامة الأولى وصف فيها ابن حمادوش حالته وهدفه من زيارة المغرب، والمقامة الثانية سماها بالهركلية، والثالثة سماها بالمقامة الحالية، فهذه هي المقامات التي سوف ندرسها ونبين غرضها.

المقامة الأولى:

وصف فيها المؤلف حالته النفسية عند خروجه من تطوان متوجها إلى مكناس، كما أخبرنا فيها عن هدفه من زيارة المغرب بمرافقته لإثنين من التجار، والطريق الصعبة التي مرو بها، ووصف فيها أيضاً الصعاب والأخطار التي واجهوها ممن يسميهم العربان أو اللصوص، كما تحدث أيضاً عن غرائب ما شاهده، يقول فيها:

"الحمد لله، طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدة الایاس، إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار لأجتنى الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار، وكنت لقفت من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أن الخطر غرور، وأن المسافر مبرور، فشددت منطقتي، لكي أدفع أزمتي، ورافقت اثنين من التجار كأنهما من الأبرار، فإكترينا من حمار كأنه أراد ابتدائي بالعار، فرددت عاره، وخبأت ناره، بما فيه أوطاره، حتى يحمد جواره، فخرجنا من تطوان إلى السفر...، فبتنا بسيدي علي العسر، فخرج إلينا أقبح العشيرة كأنه مغري، ومنه زرنا السيدة ميمونة تاكناوت، التي ردت يمين سيدي أبي سلهام بجلبها

1- أحلام عبد اللطيف حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة، قراءة لتيار الوعي في القصة السعودي

(1970-1995)، ص 22، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004.

من فاس البنات، وبتنا في أول المرج الطويل الذي به طير الماء من غر وبط وغيره كثير لا قليل ...، ومنه قطعنا وادي سب، الذي كل يجوزه بالقارب حسب*، كأنه نيل مصر، أو قطعة من البحر، ومنه إلى محلة العبيد في سوقة دادة في الفندق القديم لا الجديد، ومنه إلى النوينيات عند الكرم، الذي ليس فيه رحمة ولا كرم، من أولاد مختار لا أجبروا في تلك الدار ... "(1).

لقد ختم المؤلف هذه المقامة بقصيدة* تبلغ تسعة عشر بيتا ذم فيها أولاد مختار على بخلهم وسوء معاملتهم.

المقامة الثانية:

التي سماها بالمقامة الهركلية(2)، ونجده يصف فيها ليلته التعسة التي قضاها بأحد فنادق مكناس المسمى فندق الرحبة، وفيه سمع شجاراً وضجيجاً، تبين له من خلاله، أن امرأة كانت تطالب رجلاً كان يقيم في الغرفة المجاورة له بدفع كيت وكيت مقابل ما فعله معها من نكاح، ويذكر ابن حمادوش أنه عاد إلى النوم بعد أن هدأت الأصوات، غير أنه قرر عدم العودة إلى هذا الفندق، وختم هذه المقامة أيضاً بسبعة أبيات شعر في نفس الموضوع.

وهذا نموذج من المقامة الهركلية، يقول فيه:

"الحمد لله، حدى بي حادي الرحلة، إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة، فترلت بها في خان كأنه من أبيات النيران أو كنائس الرهبان، بل لا شك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسر به الناظر، ولا ينشرح له خاطر، فاختصت منه بحجرة،

* - أي يقطعه الناس بالقوارب فقط لعمق مائه.

1- الرحلة، ص 71، 72.

*- سوف نشير إلى هذه القصيدة ونمثل لها في القسم الثاني من هذه الدراسة الخاص بأغراض الشعر.

2- يقصد بالهركلة: الهرج والضجيج والجلبة.

أو نقرة في حجرة، وكأني وقعت من السماء في حفرة، أو اتبعت أفعوان فدخلت حجرة، فغلقت بابي لأحفظ حبابي، وأومن جنابي، من شدة أتعابي وكذلك كل من أصحابي، حتى مد الليل جناحه، وأوقد السماء مصباحه، وهدأت الأصوات، وصرنا كالأموات، وتوغلت في حبائل النوم، ولم أدر ما هنالك من القوم، فلم يوقظني إلا جلبة الأصوات، وتداعي القينات، والتدافع بمنع وهات، وبعض هاد وبعض عات، وإذا بجاري بيت بيت، يحاسب قينة على كيت وكيت، وهي تقول له: فعلت كذا كذا فعله، وتدفع أجر فعله، فو الذي سهل علي السفاح، ونصبي لكل من أراد النكاح، لا برحت إلى الصباح، على وجه وقاح، وتدفع المهر بلا سماح، فقلت: بعدا لهذا الجار، ولا شك أنه بئس القرار، ولبئس الخان كأنه حان...، ثم رجعت إلى هجعتي، ولم أدر من ذاك المجاور لبيتي" (1).

المقامة الثالثة:

والتي سماها بالمقامة الحالية، وصف فيها حالته بين الناس وكساد تجارته، والخسارة التي لحقت به، حتى أحس بدنو أجله كما تحدث فيها أيضاً عن شخص رمزي تعلق به حباً، ومع ذلك سبب له التعب والشقاء (ولعله يقصد زوجته الثانية زهراء)، وختم هذه المقامة أيضاً بالدعاء، وأبيات من الشعر في نفس الموضوع.

وهذا نموذج من المقامة الحالية، يقول فيه:

"الحمد لله محول الأحوال ومرخي البال، ومقلب الأمور في الدهور والصلاة والسلام على خير الأنام المبشر بالفرج بعد الشدة، والمنذر بالعناء بعد اللذة، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (2).

1- الرحلة، ص 78، 79.

2- سورة الشرح: الآيتين 05، 06.

وبعد، لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خف الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الأخوان، وقلت الأخدان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة، وسهلت الخسارة، قرنت بجارة غرة، عيشتها مرة، البذرة عندها ذرة، وميرة الحجيج عندها بعرة، لا يشبعها الجليل، ولا تعباً بالليل، الهموم عندها هم، والغموم عندها غم، حوائجها من جنون، وآمالها ظنون ورغبتها فيما لا يكون، الدهر كله ساخطة، ومطالبها شائطة... لا تجني إلا ثمرة الخلاف، ولا تركز إلا لعدم الإسعاف، كأن ما أحبه عقر عيسها، وما أهواه نغص عيشها، غدتا أمها لبان القروء، فشبت لا تألف المقصود، نطفة الكلاب في أرحام الثعالب، غليظة الجنب، ليس لها في الدهر صاحب... بيد أنها تسر الناظرين، وتصبي السامعين... فلذا اخترتها أمًّا لأولادي⁽¹⁾.

من خلال هذه المقامات نتوصل إلى أن "الأديب كائن بشري يعيش ضمن مجتمع له مشاكله وثقافته وأتراحه وأفراحه و الأديب يتأثر (ويؤثر) بالأحوال السائدة في مجتمعه فيكتب عنها ويحللها من خلال منظاره الفردي الذاتي، لهذا يمكن لنا أن ندرس الأوضاع الاجتماعية السائدة في وقت ما من خلال الانتاج الأدبي نشرًا كان أو شعرًا"⁽²⁾.

لذلك نلاحظ مثلاً عندما نقرأ المقامة الأولى، أن المؤلف ينتقد فيها أولاد مختار على بخلهم و سوء معاملتهم للأضياف، كما يتضح لنا من خلال المقامة الهركلية، أنه يتعرض فيها إلى الفساد الاجتماعي والأخلاقي المتفشي وقتها بمدينة مكناس،

1- الرحلة، ص164، 165.

2- د. داود غطاشة وحسين راضي، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، ص98، ط1، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، الأردن، 2000.

"فالمضمون الاجتماعي للعمل الأدبي لا يُستمد في الحقيقة من واقع الحياة في مجتمع، بل من موقف الأديب الفكري من الحياة في هذا المجتمع، فالمضمون في ذاته قيمة تتولد عن مواقف الأديب الفكرية من القيم الأخرى السائدة في المجتمع، لذلك يكون العمل الأدبي ذا مضمون اجتماعي إذا أضاف إلى مجموعة القيم الحاصلة قيمة جديدة، قد تلغيها أو تُعدل منها مما يساعد في تغيير المجتمع وتشكيله"⁽¹⁾، ولهذا نلاحظ أن مقامات ابن حمادوش "فضلا عن طرفتها كقطعة أدبية لها قيمتها التاريخية من حيث كونها صورة جزئية للمجتمع"⁽²⁾ المغربي الذي كتبت فيه.

لذلك تعتبر "مقاماته مرآة ناصعة انعكست عليها الحياة بمناحيها المختلفة من اجتماعية، وأدبية وعقلية، وحتى أخلاقية من بعض الوجوه، فمقاماته مرآة لحضارة عصره بضروبها المختلفة، ومظاهرها المتباينة، ومشاكلها القائمة"⁽³⁾، كما أنها تكشف أيضاً عن نفسية مؤلفها، ففي المقامة الحالية بالذات، نلاحظ أن صاحب الرحلة ذكر أوصافاً سيئة عن زوجه الثانية زهراء، ثم ذكر بعد ذلك حسناتها وجمالها، ومحاسنها، "وهذا تغير عاطفي حدث داخل هذه المقامة، ولم يكن متوقفاً في بدايتها"⁽⁴⁾، وهو ما يسميه البعض "بالتغير التموجي في القصة"⁽⁵⁾، أي الجمع بين رأيين متناقضين في نص واحد.

1- د. قصي عدنان سعيد الحسيني، فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته، ص 61، ط 1، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 1419هـ - 1999.

2- د. عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، ص 521، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1980.

3- د. عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، م، س، ص 521.

4- عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، م، س، ص 485.

5- د. محمد يوسف نجم، فن القصة، ص 88، د/ط، دار الثقافة، بيروت، 1963.

وفي ختام حديثنا عن مقامات ابن حمادوش، نلاحظ أنها من الوجهة الفنية، "تعتبر أكمل وأفضل، إذ لا ينقصها عنصر الحكاية، ولا طرفة الموضوع، ولا الرمز، ثم أنها تجمع النثر إلى الشعر"⁽¹⁾، فهي بذلك تخضع لمقاييس المقامة العربية المعروفة - إذن - كالحديث عن النفس، ومخاطبة شخص رمزي وكثرة توظيف الأسجاع، إلى جانب ختمها بأبيات من الشعر والدعاء.

2- الرسائل:

تلعب الرسائل دورا أساسيا وفعالا في مد رباط الأخوة والصدقة بين الناس، لهذا حظيت على مرّ العصور باهتمام العلماء والأدباء والأصدقاء والأحبة، فهي تساهم بشكل أو بآخر في توطيد العلاقات الاجتماعية.

لقد عثرنا في الرحلة على رسالة تعزية، تلقاها ابن حمادوش من المفتي محمد بن حسين*، عقب وفاة ابنه الحسين، وفيها عبر المفتي عن تعازيه الخالصة، كما اعتذر أيضاً عن عدم حضوره شخصيا في الجنازة، ومما جاء فيها قوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، إلى الجناب الكريم العالي، جامع أصناف المعالي، الذي انتهت به أمني الوداد، ومحبة الإخوة، وحسن الصداقة والإعتقاد، مولانا الفاضل الكامل السيد الحسني سيدي الحاج عبد الرزاق، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإليه، فقد بلغنا ما أحر الأذهان وأشجاها وأطار النوم من الأجفان وأبكاه، وأضرّم لواعج الأشواق، وأذكى زواعج الاحتراق.

ولقد كانت نفسي غريقة في بحر حزنها، والعين بحكم الرقة البشرية جائدة بواكف مزنها، حتى أدركتني محنتك وموت ولدك فأخذتني الصدمة وهيجت لي المحنة،

1- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص211.

*- تولى الفتوى الحنفية مدة قصيرة في سنة 1101هـ.

فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا، وتعهدهنا خطبه فهد عروشا وأركاننا، فاصبر صبر الأجواد، إنما صبر الكريم على الرزية أجمل، والله تعالى يلهمنا وإياكم الصبر، ويعظم لكم الأجر...، وقد ندب الله تعالى خاصة خلقه إليه فقال جل من قائل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (1)...، وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (2)، ومثلكم بهذا أجدر، وأعلم وأشهر" (3).

نلاحظ أن المفتي محمد بن حسين اتبع المقومات الأساسية للرسالة، حيث ابتدأها بالبسملة والحمدلة والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، كما ذكر موضوع الرسالة وهو تقديم التعزية، والاعتذار عن عدم حضوره لمراسيم الجنازة، مبرراً ذلك بأنه هو الآخر تعرض لمحنة أمت به، إلا أنه لم يفصح عنها، وبعد ذلك ختم المفتي رسالته بآيات قرآنية، وحث فيها صاحب الرحلة على التمسك بالصبر.

3- التقاريط:

تعتبر التقاريط من بين الفنون النثرية التي يحفل بها العهد العثماني "وفي التقاريط تسيطر الروح الاخوانية على الأسلوب وتبرز ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية...، فالمهم هنا هو الأسلوب الذي كتب به التقريط وليس الموضوع المقرظ" (4)، ولقد كان المقرظ يجمع في تقريطه بين النثر والشعر.

معنى ذلك أن التقاريط كانت تكتب بلغة راقية، ولهذا يجب أن نفرق "بين اللغة العادية التلقائية التي لا تصدر عن وعي أو اختيار، وبين الكتابة الأدبية التي هي بمثابة لغة فردية خاصة تصدر عن اختيار واع، وبذلك لا تخضع لمقاييس اللغة العادية التي

1- سورة النحل: الآية 127.

2- سورة المعارج: الآية 5.

3- الرحلة، ص 150، 151.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص 182.

تقدم العناصر العامة في لغة الحياة⁽¹⁾.

لقد أورد صاحب الرحلة مجموعة من التقارير له من علماء الجزائر، ولعل أجودها تقرير أحمد بن عمار لكتابه الدرر على المختصر*، الذي وضعه في المنطق وكان ابن عمار كما سنعرف من أقطاب الصنعة الأدبية نثرا وشعرا، وكان غالبا ما يسجع ويكثر من المحسنات البديعية⁽²⁾، ولكن قبل أن نعرض نموذج من هذا التقرير نود تقديم شهادة أحمد الورززي المغربي الذي صحح هذا الكتاب أثناء زيارته للجزائر، يقول فيها:

"الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، يقول من يضع اسمه عقب تاريخ أن مؤلف هذا الشرح على مختصر الشيخ السنوسي، وهو الشريف سيدي عبد الرزاق بن محمد الجزائري، سرده على وجه المذاكرة لعل أن نجد فيه ما يحتاج للإصلاح أو التكميل، فأصلحنا منه المواضيع التي تحتاج إلى الإصلاح على حسب ما سهل الله سبحانه علينا، ونرجو من الله سبحانه أن يكون كله أو جله صوابا، وإن وقع فيه خطأ فيكون معدودا محصورا، وهو إن شاء الله يصلح للإقراء والمذاكرة، والله ينفعنا وإياه به نفعا تاما، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"⁽³⁾.

ولقد شهد على هذا العديد من علماء الجزائر أمثال أحمد بن عمار، وعبد الرحمن بن الشارف، وأبو القاسم بن يوسف الحسني، وعبد الملك البرنوصي السليماني، ومما جاء في شهادة أحمد بن عمار قوله:

1- د. نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، ص33، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، 2003.

*- أي مختصر محمد بن يوسف السنوسي في المنطق.

2- يراجع أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص183.

3- الرحلة، ص259.

"أما بعد حمداً لله الكافي من استكفاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سر الوجود ومعناه، وعلى آله وأصحابه أولي الفضل والجاه، فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني القدير، أحمد بن عمار بوأه الله دار القرار، وأدرجه في سلك المصطفين الأخيار، لما جمعنا المقادير مع شيخنا الأستاذ النحرير، حبر صناعة الآداب، و قطب ذوي الفصاحة والبلاغة الأقطاب، سيدي أحمد بن محمد الورززي، عالم قطر المغرب قاطبة ومدرسه، وباني ركن العلم ومؤسسه، ببلدتنا الجزائر المحروسة بعين الملك القادر أواخر رمضان سنة تسع وخمسين ومائة وألف، من هجرة من له العز والشرف، كنت اختلف إليه مرة بعد أخرى فأجد محبنا الأديب والخبير الأريب سيدي عبد الرزاق بن حمادوش يقرأ عليه كتابه الدرر الذي جمعه على المختصر، فأصلح فيه الشيخ المذكور بقدر الاستطاعة ما يحتاج للإصلاح، وأوضح غاية ما يحتاج للإيضاح كما ذكر ذلك، قدس سره، بخطه أعلاه، دام عزه وعلاه ...، ناهيك به مؤلفاً، مبذولاً خيره لا ممنوعاً، قد أحكم فيه الرصف والإلتئام، واستخدم لطائف المعاني في بديع الكلام، حتى أفض عن المختصر الختام، وكشف عن وجوه خرائده اللثام، ووضع كنوز فرائده على طرف الثمام، فأصبح به إذ ذاك في أعلا الذرى، وطلع في سماء المعالي والمكارم بدرًا"⁽¹⁾.

لقد امتاز أسلوب ابن عمار - كما سبق وأشرنا - بالجودة اللفظية والعناية بالمحسنات البديعية، ومنها ما يعرف بالسجع*، وهو ذلك "الإيقاع الموسيقي الذي يُمكن النفس من الاهتزاز له والاطراب به، وهذا الإيقاع هو ما تنشئه تلك الحروف التي تختم بها الفواصل، والتي تتحد في أكثر من جمل"⁽²⁾، ومن أمثلة السجع الظاهر

1- الرحلة، ص 260، 261.

* - يطلق هذا المصطلح على كل كلام جارٍ على فُحجٍ واحدٍ من حيثٍ أواخر جملة.

2- العربي دحو، مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، ص 96، 97 د/ط، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، 1406هـ - 1986.

في تقرّيط ابن عمار قوله:

"هذا ولا عيب فيه، غير أنه صغر جرماً، وغزر علماً، قد أودع فيه من لطائف المعاني العجيبة الرائقة، والألفاظ البديعية الفائقة، ما هز به أعطاف الآداب، واستمال قلوب أولي الألباب، لأن جنى نور حديقة العلم زاهياً يانعاً، و جلا نور حديقته زاهراً ساطعاً، فجزاه الله خيراً عن هذا الجمع البديع، ووفقنا وإياه للعمل الصالح وحسن الصنيع، إنه مانح التوفيق، والهادي إلى سواء الطريق"⁽¹⁾.

وهذه شهادة أخرى للمؤلف كتبها له الشيخ عبد الرحمن بن الشارف جاء فيها قوله:

"الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد و على آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أثيراً إلى يوم الدين، أشهد بأن العالم العلامة، النحرير الفهامة، سيدي الحاج عبد الرزاق أصلح كتابه الذي ألف على مختصر السنوسي على الشيخ البركة، المتبرك به العالم العلامة النحرير سيدي أحمد الورززي، كما كتبه الشيخ المذكور بخطه وقت تاريخه المذكور، وقيد شهادته عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني، وفقه الله آمين"⁽²⁾.

تجدر الإشارة هنا إلى أن تقرّيط أحمد بن عمار وشهادته على أن المؤلف قد صحّح كتابه الدرر على المختصر، على يد الشيخ أحمد الورززي هي من أجود ما وجدناه في متن الرحلة.

4- عقود الزواج:

.....أورد صاحب الرحلة مجموعة من عقود الزواج المختلفة والتي تصلح نموذجاً

1- الرحلة، ص 261.

2- م، ن، ص 262.

لدراسة الحياة الاجتماعية- في القرن الثاني عشر الهجري (18م) - في الجزائر، "ومنها الذي كتب لبكر، والذي كتب لثيب، ومنها القصير، ومنها المطول"⁽¹⁾، وهذا نموذج لعقد زواج بكر كتبه العالم الأديب محمد بن عبد المؤمن*، وهو يبدأ بالحمدلة والتصلية، وبيان الغرض من وضع هذا العقد والدافع إليه يقول:

"وبعد هذا القول الذي أشرقت أنواره في رقم هذا الرقيم و سقى أرضها الأريضة من در عنصر البلاغة من نشر البراعة ما أبان عن فضل العلم الموهوب من الحكيم العليم فنمت أديمها بسطره الأبهج، عطر أنفاسها بتنميق زهرة الأبلج كأنه الحلة السبراء، نشرت في غرة الصباح فأضاءت لها الاباطح والربا، واغنتها أغناء الصباح عن المصباح، فإن النكاح جالب اليسار، حافظ الحسب والمقدار، مكاثر به في القيامة عند الملك الجبار، إذ يرتفع العنة (كذا)، والفساد، وتكثر به الذرية والأولاد، وهو شرف لا يلحقه إلا سعيد، وعقد لا يقلده إلا مجيد...، فانتدب لهذا الداعي الممثل أمره، الرفيع مكانه وقدره الفقيه النبيه، الفاضل التزيه، أبو زيد السيد عبد الرحمن⁽²⁾ ابن المرحوم المنغمس في رحمة الحي القيوم أبي العباس السيد أحمد الشريف المرتضى⁽³⁾، فخطب في بيت مروءة لا تنكر، وحضرة حسب ونسب هي من نار على علم أظهر، ومن قفا نيك أشهر، الكريمة المصونة، الدرة المكنونة، رقية بنت الشيخ الإمام، العالم العلامة الهمام، سليل العلماء الأعلام، أبي عبد الله

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص 187.

* - كان ابن عبد المؤمن من كبار القضاة في وقته، توفي 1101هـ.

2- تولى عبد الرحمن المرتضى الفتوى المالكية في الجزائر عدة مرات، أولها كانت سنة 1118هـ، في عهد محمد بكداش باشا.

3- كان أحمد الشريف المرتضى نقيب الأشراف في الجزائر، ثم تولها ابنه عبد الرحمن المذكور.

السيد المقرئ⁽¹⁾، البكر في حجر والدها المذكور على صداق مبارك ميمون قدره بين نقد محضر وحال منظر وكال مؤخر ألف دينار واحد ومائتا دينار، كلها جزائية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطانان اثنان أحدهما موبر، والآخر أطلس، وأربعة أواق جوهراً، وأربعة أفراد ستيخي، وأمتان من رقيق السودان، وأربعة قناطير صوف⁽²⁾.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن هذا العقد طويل جداً، إذ يشغل حوالي خمس صفحات من الرحلة (الأصلية)، كما غلب عليه الأسلوب الفقهي، بالإضافة إلى تفصيل الصداق والتدقيق في ذكر قيمته، ولقد أصبحت صيغة هذا العقد نموذجاً يحتذى به في كتابة عقود الزواج في تلك الفترة، بدليل ما أورده صاحب الرحلة حين قال بعده: "وعليه عادة بلادنا، وبمثله جرى العمل عندنا"⁽³⁾.

لقد ضمن صاحب الرحلة عقدي زواجه الأول من ابنة عمه فاطمة، والثاني من زهراء (وهو يكتبها زهرا بدون همزة) بنت الصفار، وكتب هذان العقدان على صيغة العقد الذي كتبه محمد بن عبد المؤمن - سبق ذكره -.

5- الإجازة:

ضمن ابن حمادوش رحلته العديد من الإجازات التي تحصل عليها خلال مسيرته العلمية، حيث ذكر أسماء الشيوخ الذين أجازوه ومواد الدراسة، والملاحظ على هذه الإجازات هو أن أسلوبها كان "أقرب إلى الأسلوب الأدبي، لأن أصحابها كانوا من الأدباء المهرة فيضفون عليها طابعهم وذوقهم، وبذلك تصبح الإجازة أيضاً

1- توفي سنة 1088هـ، والغالب أن يكون من أسرة المقرئ التلمسانية بدليل «سلييل العلماء الأعلام»،

ولكن حياته الآن ماتزال مجهولة، يراجع الرحلة، هامش، ص 239.

2- الرحلة، ص 239.

3- م، ن، ص 241.

قطعة أدبية من حيث الأسلوب على الأقل⁽¹⁾، ومن بين الإجازات التي تحصل عليها مؤلف الرحلة إجازة البناني* له، والتي يقول فيها:

"... أجزت الفقيه المذكورة (يقصد ابن حمادوش) جميع ما يجوز لي وعني روايته مقروء ومسموع ومجاز، كل ذلك بشرطه عند أهله، وأذنت له أن يحدث عني بكل ما سمعه مني أو بلغه عني من مؤلفات ومنتاولات كشرحنا على كتاب الاكتفا للإمام الكلاعي⁽²⁾ المسمى بمغاني الوفاء بمعاني الاكتفاء المضمن في ستة أسفار كبار، وشرحنا على اللامية الزقاقية⁽³⁾ في الفقه، وشرحنا على الحزب الكبير لقطب الوري سيدي أبي الحسن الشاذلي⁽⁴⁾ رضي الله عنه ونفعنا به ...، وغير ذلك مما جمعته أو نظمته، إجازة تامة مطلقة عامة، وأسأله أن لا ينساني من صالح دعائه وأوصيه ونفسي بتقوى الله ومراقبته في السر والعلانية، وهو سبحانه وتعالى، يلهمنا رشدنا ويتولى هدايتنا، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على مولانا محمد خير الخلائق أجمعين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين.

قاله وكتبه محمد بن عبد السلام البناني، غفر الله له وأوآخر المحرم الحرام فاتح و-ن-ق-ش، يعني 1156هـ⁽⁵⁾.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص183.

* - هو محمد بن عبد السلام البناني، من كبار علماء وقته، توفي 1163هـ.

2- هو سليمان بن موسى الأندلسي، وقد كان أدبيا ومحدثا، وله كتب في السيرة النبوية والتاريخ، توفي سنة 634هـ.

3- نسبة إلى علي بن قاسم الزقاق المتوفى سنة 912هـ، وهو من فقهاء المالكية وتبلغ أرجوزته اللامية في ذلك 257 بيتا.

4- هو مؤسس الطريقة الصوفية المعروفة بالشاذلية، لا نعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته الآن.

5- الرحلة، ص63.

وله إجازة أخرى تحصل عليها من الشيخ أحمد الورززي، وكان ذلك في المغرب، ومما ورد فيها قول الشيخ:

"يقول الفقير إلى الله سبحانه أحمد بن محمد بن عبد الله الورززي دارا ومنشأ الديلمي الحميري نسبا، لطف الله به وبأهله وأسلافه وأتم عليهم نعمته بدخول جنته ورضاه بمحمد، صلى الله عليه وسلم، أن الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن محمد أحمدوش* الجزائري دارا ومنشأ... أجزته بكل ما صحت لي روايته من جملة ما في فهرسة الإمام ابن غازي المكناسي ثم الفاسي⁽¹⁾...، وغير ذلك مما صح لي ولم أتبعه بالتنصيص مخافة السآمة.

وأطلب من الشريف المجاز أن يجعل لي شفاعته يوم القيامة حسبما ذكر بعض العلماء، وإن لكل واحد من الأشراف شفاعاة خاصة، فأطلب منه فضلا منه لا عوضا عن ما كتبت، أن يجعلها، إذا حققها الله له، لي ولأهلي حتى نجوز الصراط بفضل الله سبحانه، وأوصيه بصدق اللسان غاية، وأن لا يخاف في الله لومة لائم"⁽²⁾.

يهمنا هنا أن نشير إلى أن هذه بعض النماذج عن الإجازات التي تحصل عليها صاحب الرحلة من العلماء الذين قصدهم وقرأ عليهم، وبالتالي أجازوه.

6- القصص:

ضمن ابن حمادوش رحلته قصصاً مختلفة نقلها من كتب عديدة، التي يبدو أنه يقصد بها الترويح على القارئ، وهي (القصص) تعكس اختيارات المؤلف وذوقه وعقليته، منها قصة من كتاب (الدر الفائق)، وقصة الخيزران، وقصة طفيلي،

* - كل النصوص الأخرى في الرحلة تذكره (حمادوش) إلّا هنا.

1- هو محمد بن أحمد بن علي بن غازي العثماني، وهو من أبرز علماء القرن العاشر توفي 919هـ، يراجع الرحلة، هامش، ص38.

2- الرحلة، ص37، 38.

وقصة مقتل الحلاج، وقصة لإضحاك الراضي، وبعض أخباره الأخرى، وقصة الفيل، وهذا نموذج من القصة التي اختارها صاحب الرحلة من كتاب الدر الفائق⁽¹⁾، يقول: "ويوم الأربعاء ثاني الشهر المذكور ابتدأت ليلته كتاب الدر الفائق في المواعظ والرقائق محتو على ثمانين حكاية سرد، ومن أغرب ما فيه من الحكايات القصار حكاية ولد التاجر مع بنت تاجر آخر كانت قهواه وشغفت به، ففي ذات يوم فقدته وكان لا يفارقها، فسألت عنه فقيل إنه خرج سكراناً، وتعدى على شخص فمسكه الوالي فلبست ثيابها وذهبت إلى الوالي باكية كئيبة وقالت له: إني امرأة غريبة وليس لي من يقوم بأمرى إلا أخ لي، وقد كذب عليه بعض الناس فعدوت عليه وهو في سجنك، والآن طلبت من فضلك أن تُطْلَقَهُ، فلما رآها شغف بها، فقال لها إن أردت ذلك فادخلي معي المنزل، فقالت له: اني لست من تلك النسوة وإنما أنا صينة، فقال لها ولا بد، فقالت له: إن كان ولا بد فعشية الجمعة ليلة السبت آتيني إلى داري وهي في موضع الفلاني، وذهبت خائبة"⁽²⁾.

وخلاصة هذه القصة أن هذه البنت كانت تفتن كل من يراها، فحين خاب أملها في أن يطلق الوالي سراح حبيبها لجأت إلى القاضي، فطمع بها هو الآخر، ثم استجارت بالوزير، فكان طلبه مماثلاً لطلبهما، ولهذا رسمت خطة للإيقاع بهم، حين صدت جميع الأبواب في وجهها، "فذهبت إلى النجار فأمرته أن يصنع لها خزانة من صفتها أربع طبقات، وكل طبقة بابها وحده، فأخذ القياس، وقالت له كم ثمنها؟ قال لها: أومنك يؤخذ الثمن؟! إنما مرادي منك الوصال، فلما رأت الجد، قالت له:

1- لا شك أنه يقصد (الروض الفائق في المواعظ والرقائق) لشعيب بن سعد بن عبد الكافي المشهور

بالحريفيش المتوفى سنة 801هـ، وفيه أجزاء، يراجع الرحلة، هامش، ص100.

2- الرحلة، ص100.

إذاً اجعلها من خمس طبقات بأبوابها، ووعدته لوقت الأولين⁽¹⁾، أي الوالي، والقاضي، والمحتسب، والوزير.

فلما انتهى النجار من صنع الخزانة أحضرها إلى بيتها "فلما قرب العشي جاءها القاضي، فدخل الباب، فلما دخل جلس وأراد أن يحاول منها شيئاً فقالت له: تأني حتى تأكل شيئاً، وانزع ثيابك وحط عمامتك، فأخفت ثيابه وعمامته ووضعت ذلك في موضع، وإذا بالباب يدق فقالت: إن زوجي قد قدم، فقال: وكيف النجاة منه؟ فقالت له: أدخل في هذه الخزانة، وهي بإزائه، فدخل في السفلي منها وغلقت الباب..."⁽²⁾.

ونفس الشيء قامت به مع المحتسب، والوزير والقاضي والنجار، فلما دخلوا جميعهم في الخزانة "ذهبت إلى صاحب الوالي فأمر السجن فأطلق لها صاحبها وأخبرته القصة، فأتوا بحمالين وحملوا جميع ما في الدار وثياب أولئك الحمقى، وذهبوا إلى البحر فركبوا مركباً ولم يعلم أحد أين توجهوا"⁽³⁾.

من خلال هذه القصة نستطيع تلمس بعض اللمحات عن بناءات افتراضية لشخصيات قادرة على أن تكون نماذج سردية، فقصة الولد والبنت هذه التي أشرنا إليها، توفرت على شروط القصة المعروفة من: شخصيات (الولد، البنت، الوالي، القاضي، المحتسب، الوزير، النجار، وغيرهم)، كما تنوعت فيها الأحداث وتشابكة، كما أنها توفرت أيضاً على عنصر الزمان والمكان، إلى جانب العقدة (إلقاء القبض على الولد)، والتي تأزمت حين طمع كل الذين قصدتهم البنت للإفراج عنه بالوصال

1- الرحلة، ص 101.

2- م، ن، ص 101.

3- م، ن، ص 102.

والقرب منها، ثم بعد ذلك الحل والانفراج حين أوقعت بهم وخلصت صاحبها من السجن وهربت معه إلى مكان مجهول لا يعرفهما أحد فيه.

ب- أغراض الشعر:

يقسم الشعر في الأدب العربي عادة إلى موضوعات ولهذا "فالشعر وفقا لفكرة الموضوعات التقليدية ضرب من الحلّى أو جنس من التصوير، فكرة الموضوعات غير منبثقة من الشعر نفسه، وإنما هي منبثقة من خارجه، أو من المجتمع الذي يتطلب"⁽¹⁾ مثل هذه الأغراض.

ذكر ابن حمادوش أغراض شعره في الرحلة حين قال: "بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى صلى الله عليه وسلم"⁽²⁾، إلا أننا صادفنا قصائدًا تتناول أغراضاً أخرى أيضاً غير التي ذكرها - سابقاً - ما عدا الرثاء.

فقد نظم قصائد عديدة تتناول موضوعات كثيرة مثل "المدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والشكوى من كساد التجارة، ومعاكسة الزمان، والإستجازه من علماء المغرب، ونحو ذلك"⁽³⁾.

يبدو أن لمؤلف الرحلة أشعاراً مفقودةً نظمها في الأغراض التي أشار إليها، والتي قال أنه جعلها في ديوانه الذي ما يزال مفقوداً هو الآخر - حسب علمي - واستناداً إلى كل هذا سنحاول ذكر القصائد والقطع الشعرية التي عثرنا عليها في الرحلة، وسوف نبين الأغراض التي قيلت فيها، ومطالعها وبعض الأوصاف الأخرى لكل قصيدة وقطعة.

1- د. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، ص 231، ط3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

2- الرحلة، ص 118.

3- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 41.

1- المدح:

نظم ابن حمادوش قصيدتين في السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل، الأولى كانت أثناء ولايته عام 1145هـ، ويشير في الرحلة أنه لم يقدمها له، بدليل قوله: "وما تقدم من هذه القصيدة التي هنت فيها مولاي عبد الله لم أدفعها إليه، وإنما حملني الأدب عليها ووضعتها في رحلي" (1).

وهذه القصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتا، ومطلعها:

قَطَعْتُ بِحَارًا مُوَهَلَاتٍ وَدُونَهَا قَفَارًا لَا تَأْوِيهَا الْوُحُوشُ مَعَ الطَّيْرِ
وَجُبْتُ بِلَادَ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ عَلَى قَدَمِي وَطُورًا وَطُورًا عَلَى الْحُمْرِ (2)

يتجلى لنا غرض المدح في هذه الأبيات، والتي يقول فيها:

أَمُولَايَ عَبْدُ اللَّهِ طِبْتَ أَبَوَةً وَأُمَّا، فَهَلْ مِثْلُ الْخَلِيفَةِ فِي الْعَصْرِ
أَيَا ابْنَ اللَّيْثِ الْعَادِيَاتِ عَلَى الْعَدَا وَيَا ابْنَ الْكَرَامِ الرَّاحِمِينَ لَذِي الْفَقْرِ
أَبُوكَ التَّوَى لِلْفَاسِقِينَ وَإِنَّهُ لَعَيْتُ عَلَى أَرْضِ الْمَسَاكِينِ بِالْخَيْرِ
وَأَنْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ وَفِي الْجُودِ بَحْرٌ إِلَّا أَنَّهُ لِلْأَجْرِ
رَأَيْتُكَ بِالْقِنْطَارِ ضَيِّفْتَ قَاضِيَنَا وَقِنْطَارَكَ الْمَوْزُونَ يُثْقَلُ بِالظَّهْرِ
وَأَصْحَابُكَ الْغُرَّ الْكَرَامُ فَإِنَّهُمْ عُيُونٌ كَحَلَقَةِ النُّجُومِ عَلَى الْبَدْرِ
عَلَيْكُمْ سَلَامٌ اللَّهُ يَا مَجْمَعَ الرِّضَى وَأَلْفَ تَحِيَّاتٍ تَدُومُ مَدَا الدَّهْرِ (3).

كما ذكر في قصيدة أخرى له في نفس الغرض يمدح فيها نفس السلطان ويهنئه فيها، حين هزم وقتل الثائر أحمد الريفي، غير أنه لم يقدمها له أيضا، بدليل قوله:

1- الرحلة، ص 116.

2- م، ن، ص 116.

3- م، ن، ص 117.

"وقد هيأت له فصيصة هنيئة فيها حين قهر الباشا ورجع، فلما رأيت غلظ حجابها مسكتها عندي"⁽¹⁾، معنى ذلك أن إذن السماح له بالدخول على السلطان قد رُفِضَ. تبلغ هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتا ، ومما جاء فيها قوله:

أَمْوَلَايَ عَبْدُ اللَّهِ بُشْرَكَ هُنَا	بِكُلِّ الَّذِي تَبْغِي مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
وَسَاقَتْ رِيَّاحُ السَّعْدِ جَارِيَةً هُنَا	لِسَاحِلِ بَحْرِكَ الْمَفِيزِ عَلَى الْيُسْرِ
كَأَنَّكَ بَحْرٌ فِي الْعَطَاءِ وَمَنْ يَكُنْ	كَمِثْلِكَ حَقٌّ أَنْ يَنَالَ مِنَ الظَّفَرِ
وَذَلَّتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ حَتَّى كَانَهَا	أَرَانِبٌ لَا تَعْدُو خُطَاهَا عَنِ الْجُحْرِ
لَقَدْ شَهِدَتْ أُولُوا الْمُغِيرَاتِ أَنَّهُ	لَتَنْصُرَكَ الْأَنْطَافُ فِي الْبَطْنِ وَالظَّهْرِ
وَالَا تُخْرِجَهَا مِنْ مَحَلِّهَا	وَتُثْقِلَهَا وَلَا يَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ
كَأَنَّكَ سَيْفٌ سُلَّ عَنْ مَعْشَرِ الرَّدَى	وَعَيْثُ يَرُوي الطَّائِعِينَ أُولِي الْفَقْرِ ⁽²⁾

تجدر الإشارة هنا إلى أن صاحب الرحلة لم يمدح سلطانا آخر، ولم يتقرب إلى ذوي الجاه والسلطة بدافع الرغبة في الحصول على المال والجاه، وقد صرح بذلك حين قال: "فكان من فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلما للدنيا، ولم أنل به شيئا، ولم أمدح أحداً لطمع، ولا مدحت سلطانا قط غير هاتين القصيدتين، حملني للأدب (كذا)، ولم أتكلف لوصولهما، فخلدتهما في ديوان الأدب، ولم يراهما"⁽³⁾.

وله قصيدة أخرى في نفس الغرض (المدح)، قالها في شيخه أحمد بن المبارك، وفيها يُكثر من الالحاح في طلب الإجازة منه، كما وصف فيها حالة العلوم في عصره، وتبلغ هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتا، جاء فيها قوله:

1- الرحلة، ص 97.

2- م، ن، ص 97، 98.

3- م، ن، ص 117.

أَيَا شَيْخَنَا شَيْخُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
 عَلَوْتَ عَلَى أَعْلَى ذُرَى الْمَجْدِ رِفْعَةً
 وَكُنْتَ نَسِيجَ وَحْدِكَ الْيَوْمَ فِي الْعَدَى
 وَمَنْ مِثْلُكُمْ فِي الْكَوْنِ يُقْصَدُ بِأَبْهٍ
 لَقَدْ عَمَّ بَحْرُ الْجَهْلِ حَتَّى رَأَيْتُهُ
 وَقَدْ صَارَ كُلُّ دِيكَ يَصْرُخُ وَحْدَهُ
 إِلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الْإِجَازَةَ صِرَاحَةً، فيقول:
 وَأَنْتَ إِمَامٌ بِالْعُلُومِ مُحَقِّقًا
 وَإِنِّي طَلَبْتُ اللَّهَ أَنْ أَرَى وَجْهَكُمْ
 وَهَذَا أَنَا قَدْ نَلْتُ الَّذِي كُنْتُ أَشْتَهِي
 فَضَعْ خَطَّكَ الْمَرْفُوعَ فِي نَصْبِ صَفْحَتِي
 أَسِيدَ أَحْمَدَ الْمُبَارَكِ فِي الدَّهْرِ*
 فَكُنْتُ فِي أَوْجِ الْعِزِّ كَالْكَوْكَبِ الدَّرِيِّ
 وَمَنْ أَيْنَ لِلْإِسْلَامِ مِثْلُكَ كَالنِّيرِ
 وَمَنْ أَيْنَ يَأْتِينَا وَجُودُهُ فِي الْعَصْرِ
 مُحِيطًا بِآفَاقِ الْأَنَامِ عَلَى الْبَرِّ
 وَدَعْوَتُهُ تَحْكِي مُسَيْلَمَةَ الشَّرِّ (1)
 بِسَاحَتِكُمْ فَلُكُ التَّجَاةِ مِنَ الْبَحْرِ
 وَأَسْجُدَ عَنْ تِلْكَ الْأَكْفِ عَلَى الْبَرِّ
 وَقَدْ بَقِيَتْ لِي الْإِجَازَةُ فِي النِّشْرِ
 وَعَقِبَ بِهِ مَنْ قَدْ لَقِيَتْ مِنَ الْغَرِّ (2)

2- الحنين إلى الأهل والوطن:

لقد كانت الغربة عن الأهل والوطن من بين الدوافع التي أدت بـابن حمادوش إلى أن ينظم في هذا الغرض، ونحن نعلم أن "الإنسان محب لبيئته ووطنه، وهو متمسك بهذا الوطن يحن إليه ويدافع عنه...، و الحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها، مهما بلغ رقيه الحضاري، وتطوره المادي، وسموه الروحي، اللهم إلا في حالات شاذة نادرة...، ومنذ وجد الإنسان ذاته في وطن بين أهل وأصحاب، آباء وأبناء، شعر بقوة الرابطة التي تربطه بهم، وبهذه البلاد التي شهدت

* - كذا القصيدة على هذا النحو سواء منها المنسوب وغير المنسوب، وقد تركنا ذلك على حاله، وهي

أيضا مليئة بالأخطاء العروضية والنحوية.

1- الرحلة، ص83.

2- م، س، ص83.

خلقه وحياته، وكانت مسرحاً لتطوراته النفسية والفكرية⁽¹⁾، ولهذا فالحنين إلى الأهل والوطن أمر طبيعي يشعر به كل من ملك قلباً مرهفاً.

ولقد كان "الإحساس بالغربة يتضاعف في نفوس الشعراء المهاجرين حين تمر عليهم بعض المناسبات التي تعودوا أن يقضوها بين أهلهم وذويهم، كمناسبات الأعياد ونحوها، وحين يجد الشاعر نفسه وحيداً غريباً في مثل هذه المناسبات لا يملك إلاّ ذكرياته ودموعه"⁽²⁾، وهذا ما نلمسه في قصيدة لابن حمادوش قالها حين شهد عيد الأضحى في المغرب، والتي عبر فيها عن حزنه وغربته وبقائه وحيداً، ومما جاء فيها قوله:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَصْبَرَ صَابِرُ	وَهَا أَنَا فِي هَذَا الْأَوَانِ ذَلِيلُ*
أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَةً	نَوَاحِيَّ التَّكَالَى تَحْسُبُونِي جَمِيلُ
بُثَيْنَةً عِنْدِي وَإِنِّي جَارُهَا	وَفَارَقْتُهَا، كَرَهَا، فَإِنِّي عَلِيلُ
وَقَدْ أَذْرَكَ الْعِيدُ الْحَيْلَ دِيَارَهُ	عَلَى شَطَطٍ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
فَلَوْ كَانَ طَيْرٌ يَطِيرُ بِبَغْيَتِي	إِلَى دَارَ زَهْرًا بِالْكِتَابِ يَدِيلُ
لَطَوَّقْتُهُ طَوْقَ الْأَمَانِ فَيُخْبِرُ	بَأَنِّي عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ نَحِيلُ
وَلَكِنْ لَمْ تَذَرِ الطُّيُورُ بَأَنَّنِي	بَكَيْتُ الدَّمَاءَ، قَهْرًا، وَلِي عَوِيلُ ⁽³⁾

وله قصيدة أخرى في نفس الموضوع، حين تحطمت السفينة التي كانت ستنقله ومن معه إلى الجزائر، يقول فيها:

1- د. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص24، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، 1409هـ-1989.

2- د. فوزي سعد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، ص29، د/ط، دار المعرفة الجامعية، 2000.
* - في هذه القصيدة خلل كثير لم نصلحه، من أخطاء نحوية وإملائية، ومع ذلك فموضوعها طريف وفيها لقطات جيدة.

3- الرحلة، ص108.

أَيَا أُمِّ عَبْدٍ * صَبْرِي تَصْبِرِي
لَكِنْ مَا قُدِّرَ لَا يَكُونُ
وَبِي كَأَلْفِ مَا بِكَ مِنَ الْأَسَى
جَرَتْ لَنَا الْأَقْدَارُ بِأَلَّتِي نَرَى
كَرْهًا، وَمَا أَنَا لَدَيْكُمْ بِالْفُخُورِ
وَحُبِّهَا، فِيمَا عَلِمْتُمْ، كَالْفُجُورِ
وَأَيِّقْنِي أَنِّي عَلَى الْأَمْرِ جَرِي
سَوَاهُ، فَأَرْضِي بِهِ يَهُونُ
وَلَيْسَ لِي بِدَفْعِهِ مِنْ مُؤْتَسِي
فَاصْبِرِي صَبْرًا كَصَبْرِي فِي الْوَرَى
لَكِنْ لِلدُّنْيَا يَقُودُنِي الْغُرُورُ
لَأَجْلِهَا رَكِبَ الْأَحْمَقُ الْبُحُورَ⁽¹⁾

الظاهر من خلال هذه القصيدة أن نزعة الحنين كانت "تتأجج في نفس الشاعر أيضاً حين يتذكر أبناءه الذين تركهم ورحل عنهم إلى مكان ناء بحثاً عن الرزق ونحوه"⁽²⁾، كما سيطر عليه الحزن حين انقطعت أخبارهم عنه، يقول في ذلك:

تَرَكْتُ أَفْرَاخًا كَأَفْرَاخِ الْقَطَا
زُغْبًا صَغَارًا مَا عَلَيْهِمْ رِيشُ
فَمَنْ لَهُمْ وَمَنْ لَهُمْ وَمَنْ لَهُمْ
بَكَيْتُ قَهْرًا عَنْكُمْ يَا مَعْشَرَ
لَيْسَ لَنَا اتِّصَالٌ فِي الْأَنَامِ
وَلَمْ أَذَرِ أَقْصَرُكُمْ رَحِيبُ
فِي أَفْحُوصٍ فَقْرٍ وَمَالُهُ تَمَطَّا
وَأُمُّهُمْ فِي مَهْمَةٍ وَحِيشِ
سِوَى إِلَهٍ خَلَقَ الْخَلْقَ لَهُمْ
فَرَقْتُكُمْ وَمَا وَجَدْتُ نَفْرًا
وَلَا لَنَا اتِّصَالٌ فِي الْمَنَامِ
أَمْ حَالُكُمْ كَحَالِنَا نَحِيبُ⁽³⁾

ما يمكن أن نستخلصه مما تقدم أن "الإنسان في الرحلة تتغير مألوفاته وعاداته فيكتسب بمواجهة ذلك أخلاقاً طيبة تغرسها الرحلة في النفس، مثل خلق الصبر لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية وآلام نفسية لفراق الأحبة ...، فإن البعيد عن

*- يبدو أن المؤلف هنا يخاطب أمه، و(عبد) هو عبد الرزاق اسمه هو.

1- الرحلة، ص 109، 110.

2- فوزي سعد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، م، س، ص 29.

3- الرحلة، ص 110.

وطنه أشد شعورًا بالحاجة إلى هذا الأدب⁽¹⁾ للتعبير عن مشاعره وعواطفه.

وفي هذا الصدد نجد قوله:

لَكِنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرٌ	وَيَتْبَعُ الْعُسْرَ بِأَلْفِ أَلْفِ يُسْرٍ
وَأَيِّقِنِي أَنَّ مَعَ الصَّبْرِ الظَّفَرُ	وَأَنَّ ذَا مُرِّ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرُ
وَأَنَّنِي رَهْنُ الْأَسَى فِي بَيْتِي	لَا أُنْسُ لَا مُعِينَ لِي فِي قُوتِي
لَكِنِّي، وَقْتُ، قَدْ اسْتَرَحْتُ	مَنْ الْعِلَاجَ فِيمَا قَدْ رَأَيْتُ
لَحْمِي قُوتِي وَدَّمَائِي شُرْبِي	وَفَكَّرْتِي فِيكُمْ وَرَغْبَتِي رَبِّي
فَهَذَا حَالِي فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ	وَهَذَا دَائِي فِي الْغَدُوِّ وَالرَّوَّاحِ
فَإِنْ أَنَا جَزَعْتُ أَوْ فَرَقْتُ	فَأَيِّقُنُونِي مُرًّا قَدْ كَرَعْتُ ⁽²⁾

ولهذا يهمننا أن نشير إلى أن البيئة، أو الوسط الذي يعيش فيه صاحب الرحلة بما فيه من أمور طبيعية كانت أم مصطنعة، "بتأثير النظام الاجتماعي أو السياسي، تترك بصمتها على ما يشعر به، ويحس، فتسمو تلك الإحساسات، وتبرز في صور، تعكس الوسط البيئي الطبيعي والاجتماعي"⁽³⁾، الذي يعيش فيه الشاعر، ولذلك "تلعب البيئة دورها في تطور الأحداث"⁽⁴⁾، وتنوعها، فبعد صاحب الرحلة عن وطنه وأهله، وكساد تجارته، وغزارة الأمطار، وانشغال الناس بشؤونهم، كل هذه الأمور جعلته حزينًا كئيبيًا وحيدًا، حيث لاحظنا أنه كان متأثرًا جدًا من جراء الغربة والبعد.

1- الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه، نور الدين

عتر، ص 27، ط 1، دار الكتب العلمية، مصر، 1395هـ - 1975.

2- الرحلة، ص 110.

3- حميد آدم ثويني، فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية، ص 59، ط 1، دار صفاء للنشر

والتوزيع، عمان، 1427هـ - 2006.

4- د. محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، ص 6، د/ط،

منشأة المعارف بالاسكندرية، د/ت.

ولهذا فالجانب النفسي والصحي بالنسبة لصاحب الرحلة كان متدهوراً أيضاً، حيث صعب عليه التكيف والملائمة في البيئة الجديدة (المغرب)، حتى وجدناه يود لو يسمع أخبار أهله وأحبائه حتى ولو في المنام، وبذلك وجد الشاعر وسيلة "للتعبير عن العواطف والمشاعر والأحاسيس"⁽¹⁾ التي تختلج في صدره من خلال هذه القصائد

3- الفخر والهجاء:

أورد صاحب الرحلة قصيدة يفتخر فيها على الشاعر المفتي ابن علي، ويهجوّه فيها أيضاً، وسبب ذلك أن ابن حمادوش كان ذات مرة في دار صديقه وشيخه محمد بن ميمون فدخل عليهما المفتي ابن علي، فلم يقم له ابن حمادوش احتراماً، فغضب وخرج، وهذه هي روايته عن ذلك يقول: "... ناداني إلى داره، كعادته، شيخنا سيدي محمد بن ميمون بعد العصر، جزاه الله خيراً، إذ قد دخل علينا الرافل في ثوبه الزاهي بكبره وعجبه، الذي يعد الأشراف أَرْضاً، وأن نعله يطأ صفحات حدودهم فرضاً، وأنه بلغ غاية القصوى، وأباح في جانبنا العدوي، وأنه استبطن منا ملكة من ذوي الأقدار، فاستقذرها وعدّها من الأقدار، ورغبته في الدنيا وليس له رغبة في دار القرار، مفتي الحنفية بالوقت، ابن علي* المستحق المقت، فغضب إذ لم انتصب متمثلاً بين يديه، وشرع ينسب إليّ مما اتصف به"⁽²⁾، ولقد نظم ابن حمادوش قصيدة تبلغ أربعة عشر بيتاً افتخر فيها بنسبه إلى بني هاشم، وهجا فيها ابن علي على أساس أنه من الكراغلة المولودين من أب تركي وأم جزائرية (وهو صحيح)⁽³⁾، ومما ورد في هذه القصيدة قوله:

1- إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن، م، س، ص 42.

* - سبق التعريف به في الفصل الأول.

2- الرحلة، ص 256.

3- يراجع م، ن، هامش، ص 256.

خَرَجْتَ ذَلِيلًا لَا أَعُودُ لِمِثْلِهَا
فَإِنِّي مِنَ اللَّائِنِ فَوْقَ الثَّرَى تَرَى
بَنَّا جَدُّنَا فِي الْعَالِيَاتِ قُصُورَنَا
وَمَنْ ذَا يَرَى فِي الْعَالَمِينَ قَرِينَنَا
فَإِنْ رَأَى حَظًّا طَارِيًّا بَرَقَ خَلْبُ
لَنَا مِنْهُمْ فِي الْعَالَمِينَ وَرَاثَةٌ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَقْلُوا وَمَنْ شَاءَ فَلْيَعْلُوا
فَلَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ غَيْرُنَا
فَكُلُّ مَقَامٍ فِي ذُرَى الْمَجْدِ يُرْتَقَى
بَنُو هَاشِمٍ خَيْرُ الْقَبَائِلِ مِنْهُمْ

وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ، وَيَحْكُ فِي غَمَدٍ
وَأَنْفُسُنَا فِي الْعَرْشِ تَابِعَةُ الْمَجْدِ
فَلَا نَرْتَضِي الْأَذْنَى كِبَارًا وَفِي الْمَهْدِ
وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَفُوقُنَا بِالنَّقْدِ
فَإِنَّ وَرَثَتَنَا الْمَجْدَ جَدًّا عَنْ الْجَدِّ
مَوَدَّتُنَا دِينَ وَقَلُونَا بِالضَّدِّ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيَسْلُوا جَوَارِنَا بِالْبُعْدِ
وَإِنْ أَدْرَكَ الدُّنْيَا وَحَاذَهَا فِي الْأَيْدِ
لَنَا أَوْجُهُ فِي السَّامِيِّينَ مَعَ الرَّفْدِ
إِمَامُ الْهُدَى جَدُّ الْحُسَيْنِيِّينَ الْمَهْدِ⁽¹⁾

نتبين من خلال هذه القصيدة أن الطبيعة الإنسانية بحد ذاتها قائمة على الحسد والمنافسة بين المتعاصرين، لأن الفخر في الأبيات السابقة "يعني اثبات الذات، وتهيئة الجو الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان في ظروف تسودها الصراعات والاختلافات والتنافس على قضايا معينة"⁽²⁾، ولقد لاحظنا أن صاحب الرحلة افتخر بنسبه وشرفه العلوي الهاشمي.

الظاهر أن صاحب الرحلة هجا ابن علي - كما سبق وذكرنا - كونه غير عربي، ولأنه يحب الدنيا ومتكبر ومتصلق، إلا أن هذا يعتبر رأيه الخاص، "وهيئات أن يصل شعر ابن حمادوش إلى شعر ابن علي...، والمعروف أن ابن ميمون كان صديق الاثنين...، وكان ابن عمار وابن علي على علاقات ودية"⁽³⁾.

1- الرحلة، ص 256، 257.

2- د. العربي دحو، الأدب العربي في المغرب العربي، من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية (30هـ-230)، ص 86، د/ط، دار الكتاب العربي، الجزائر 2007.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، م، س، ص 276.

يبدو لنا من خلال ما تقدم أن ابن حمادوش كان فقيراً، ولم يحض بمناصب راقية، وكانت أسرته فقيرة هي الأخرى، كما لم تكن لهم صلة بالسلطة على عكس عائلة ابن علي تماماً، والتي تولت القضاء والفتوى الحنفية في الجزائر خلال القرن الحادي عشر الهجري، وتولاها ابن علي سنة 1150هـ، ولهذا "تدل ملاحظة السلوك الاجتماعي على أن بعض الأفراد الذين يعانون من مركب النقص قد يصبحون توكيدي الذات Self assertive، وذلك لإخفاء شعورهم بالنقص، فمن المحتمل أن يبالغ فرد في مدح نفسه، كالإشادة بمزاياه في أحد المجالات، لأنه يعاني من نقص في مجال معين"⁽¹⁾، وهذا ما لاحظناه بالفعل في هذه القصيدة، حيث وجدنا ابن حمادوش يفتخر بنفسه وشرفه على ابن علي، لإخفاء النقص الذي يعاني منه، لأنه كان فقيراً معدماً، وابن علي كان من أصحاب الجاه والنفوذ، وهذا ما يفسر حقيقة الخلاف بينهما.

عشرنا أيضاً في الرحلة على قطعة شعرية أخرى، هجا فيها أولاد مختار بالمغرب على بخلهم، "وقد عبر فيها على الخوف الذي ساوره هو ورفاقه لأن ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم"⁽²⁾، وتبلغ هذه القطعة تسعة عشر بيتاً، ولقد وردت في آخر مقامته الأولى، التي قالها وهو في الطريق من تطوان إلى مكناس، ومطلعها:

وَلَيْلَةٌ مُخْتَارٌ بَيْتُ بِهَا هَمٌّ	مَدَى الدَّهْرِ لَا يُرْجَى يَحُورُ عَنْ هَمٍّ
وَأَلْ قَرِيمٌ كُلُّهُمْ مَجْمَعُ الرَّدَى	يُسَيُّونَ بِالْأَضْيَافِ فِي الْقَوْلِ وَالْحُكْمِ ⁽³⁾

1- خير الله عصار، مقدمة لعلم النفس، م، س، ص 109.

2- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 41.

3- الرحلة، ص 72.

4- الرثاء:

إذا كانت الحياة بمتطلباتها تستدعي وجود علاقات مختلفة تربط بين الناس في تعاملاتهم، فإن الموت أيضا كان يقوي تلك العلاقات والروابط، بل يكشف عن مدى صدقها أو زيفها فكما كان العلماء والأبء يتبادلون التهنة ويتمادحون فيما بينهم بحكم الظروف والمناسبات، نلاحظ أنهم كانوا أيضا ينظمون الأشعار عند "وقوع مصاب بأحد العلماء أو الشيوخ وشعر الرثاء على خلاف شعر المدح قليل"⁽¹⁾، ومما لا شك فيه أن الرثاء يكون أصدق إذا ما قيل في الشيوخ والعلماء والأقارب، ولابن حمادوش قصيدة في رثاء شيخه أحمد بن المبارك، تبلغ ثلاثين بيتا، ومما جاء فيها قوله:

أَفَلْتَ يَا شَمْسَ الْغَرْبِ فِي حَجَبِ الثَّرَى وَأَبْقَيْتَ فَاسًا فِي الظَّلَامِ وَفِي الْغَمِّ
فَحَيَّرْتَ رُصَادًا وَعَطَلْتَ آلَةً وَفَرَحْتَ شَيْطَانًا قَهْرْتُهُ بِالرَّجْمِ
أَيَا شَيْخَنَا شَيْخُ الْجَمَاعَةِ أَحْمَدُ أَنْجَلَ مُبَارَكٍ وَصَلَتْ ذُو الرَّحِمِ
بَذَلْتَ عُلُومًا كُنْتَ فِيهَا مُبْرَزًا فَلَسْتَ بِمَنَاعِ الْعُفَاتِ مِنَ الْفَهْمِ⁽²⁾

ويظهر رثاءه لشيخه واضحا في هذه الأبيات، يقول:

رَثَيْتُكَ مَحْزُونًا وَكُلُّ الْوَرَى مِثْلِي وَأَنْيَّ لَنَا شَخْصًا كَمِثْلِكَ فِي الْحَلَمِ
يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَبْكِيَ الْعُمَرَ بِالْدمَاءِ عَلَى الْعَالَمِ النَّحْرِيرِ إِذْ تَوَى فِي الرُّمِّ⁽³⁾

تعتبر هذه القصيدة هي الوحيدة له في غرض الرثاء، وهذا يثبت فعلا ما أشرنا إليه سابقا من أن هذا الغرض الشعري قليل جدا إذا ما قورن بالأغراض الأخرى التي عثرنا عليها في الرحلة كالمدح، والحنين إلى الأهل والوطن.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص279.

2- الرحلة، ص87.

3- م، ن، ص88.

5- الألغاز:

لقد كان تداول الألغاز والتنافس في حلها "نوعاً من الرياضة الأدبية يتعاطاها الفقهاء والشعراء، على السواء، ففي وقت انعدمت فيه أو كادت وسائل الترفيه والتسلية، كان اللجوء إلى التلغيز بالشعر إحدى هذه الوسائل وكان الملمغز يعبر عن حادثته بالبيت أو الأبيات، ولكنه لا يلجأ إلى القصيدة الطويلة، وليس من الضروري أن ينظم الملمغزون ألغازاً جديدة فقد كان بعضهم يعود إلى كتب الأدب العربي ويأخذ منها نموذجاً أو أكثر، ويرسل به إلى زملائه فيعملون فيه الرأي والذكاء محاولين الاجابة التي قلما تكون صائبة"⁽¹⁾.

أورد ابن حمادوش لغزاً* من كتاب البوني⁽²⁾ في الألغاز، والذي حاول حله مع بعض علماء الجزائر والمغرب وتونس، غير أنهم عجزوا عن حله، بدليل قوله في الرحلة: "فتداولناه بيننا حتى بلغ كل عالم وأديب في البلد فلم يفتض بكرته ولم نجد علماً عند أحد به"⁽³⁾.

ومما ورد في اللغز* قوله:

أَلَا أَيُّهَا الْغَادِي عَلَى ظَهْرِ أَجْوَدِ	يَشُقُّ الْفِيَّافِي قَدْ قَدْ بَعْدَ قَدْ قَدْ
تَحْمَلُ، رَعَاكَ اللَّهُ، مِنِّي تَحِيَّةٌ	تُحْيِي بِهَا أَهْلَ الْمَجَالِسِ فِي غَدٍ
وَقُلْ لَهُمْ مَا سَبَعَةٌ خُلِقُوا مَعَا	وَمَا سَبَعَةٌ فِي ثَوْبٍ خَزَّ مُورِدٍ
حَوَاجِبُهُمْ سَبْعُونَ فِي وَجْهِ وَاحِدٍ	وَأَمَّا أَعْيُنُهُمْ تَسْعُونَ فِي خَلْقٍ هُدُودٍ

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص286.

* - يعرف بلغز السبعة، ولقد وضع فيه الشيخ أحمد البوني تأليفاً خاصاً به.

2- هو أحمد بن قاسم بن ساسي البوني له حوالي مائة تأليف، توفي في عنابة سنة 1139هـ.

3- الرحلة، ص130.

* - ينسب هذا اللغز إلى عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى بالقاهرة سنة 911هـ، يراجع الرحلة، هامش، ص131.

أَبُوهُمْ لَهُ حَرْفَانِ مِنْ اسْمِ جَعْفَرٍ وَحَرْفَانِ مِنْ اسْمِ عَلِيٍّ وَأَحْمَدُ⁽¹⁾
ومن علماء الجزائر الذين سألهم صاحب الرحلة عن معنى هذا اللغز، يحيى الشاوي⁽²⁾،
والذي قال أنه: أجابه في الحال وعلى ارتجال بقوله:

هُمْ سَبْعَةٌ مِنْ بَيْضَةٍ خُلِقُوا مَعًا وَمِثْلُهُمْ فِي ثَوْبٍ خِزٍّ مُورِدٍ
حَوَاجِبُهُمْ سَبْعُونَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ وَأَعْيُنُهُمْ تَسْعُونَ صُورَةً هَذُودٍ
أَبُوهُمْ رَجِيمٌ مَارِدٌ مُتَمَرِّدٌ وَقَدْ جُمِعَتْ مِنْ لَفْظٍ لُغْزٌ مُقَيَّدٌ⁽³⁾

كما يذكر صاحب الرحلة أيضاً أن الشيخ ابن باديس⁽⁴⁾ "بعث باللغز المذكور
إلى الجزائر فلم يحصل من فقهاءها جواباً عنه، وكنت كاتبته بجواب شيخنا الشاوي
عنه فأجابني بأنه لم يفهم الجواب، فأحلته على النظر في الحياة الكبرى
للدميري⁽⁵⁾ فانه ذكر ما يوضح اللغز، فعليك به"⁽⁶⁾، وهذا دليل واضح وصريح
عن عجز المؤلف وعلماء الجزائر في حل هذا اللغز.

في ختام حديثنا عن الأشعار التي عثرنا عليها في الرحلة، نتبين أن ابن حمادوش
حين قال: "أنه قد بنى ديوانه على الغزل والنسيب ومدح المصطفى والمراثي يحتاج
إلى التأمل، ومن الطبيعي أن تكون الرحلة ليست ديوان شعره، فهي لتسجيل

1- الرحلة، ص 130.

2- هو يحيى الشاوي الملياني، المتوفى سنة 1096هـ.

3- م، ن، ص 131.

4- الظاهر أنه هو بركات بن باديس القسنطيني، شيخ أحمد البوني، ولا ندري متى توفي ابن باديس، غير أنه
من علماء القرن الحادي عشر الهجري، يراجع الرحلة، هامش، ص 131.

5- هو محمد بن موسى بن يحيى الدميري المصري صاحب كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، توفي
سنة 808 هـ.

6- م، ن، ص 131.

الأحداث لا الأشعار"⁽¹⁾، كما نلاحظ أيضاً أنه كثيراً ما يشير إلى أن شعره غير جيد، وإنما يحاوله كدخيل عليه، لذلك ففي أشعاره العديد من الأخطاء العروضية والنحوية والإملائية وغيرها.

ومن خلال أشعاره المبثوثة في الرحلة عرفنا أنه كان معاصراً لشاعرين كبيرين هما أحمد بن عمار وابن علي، "فشعر ابن حمادوش إذا ما قورن بشعرهما لاشيء في الواقع، فهو ليس سوى متطفل على قول الشعر، كما تدل على ذلك قوافيه وبحوره وتعايره"⁽²⁾، بالإضافة إلى ذلك فإننا إذا قارنا فنون نشره بأغراض شعره، فسوف نلاحظ أن مقاماته مثلاً أجود من شعره على سبيل المثال.

وعلى كل حال، فإنّ الرحلة بكل موضوعاتها "تكمّن فيها المتعة كما تكمّن ... الفائدة"⁽³⁾ بما تقدمه لنا من معلومات وأخبار عن حياة مؤلفها واهتماماته ودراسته الشخصية لما حوله، إلى جانب ما تحتويه من أخبار عن عصره ومعاصريه.

1- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، م، س، ص 45، 46.

2- م، ن، ص 46.

3- حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب - رحلات أمين الريحاني نموذجاً - م، س، ص 3.

الفصل الثالث

لغة السرد

1- طريقة الحكّي

2- الوصف

3- الحوار

4- الفصحى والعامية

إن الحديث عن اللغة السردية الموظفة في متن الرحلة يقودنا حتماً إلى الحديث عن الأسلوب، هذا الأخير الذي يعرف الكاتب، ويميز بينه وبين غيره من الكتاب، لأن "اللغة جواهر منثورة منشورة، والأسلوب عقد منتظم منها"⁽¹⁾، أي أن اللغة ظاهرة إنسانية عامة أو مشتركة بينما الأسلوب خاص، ولهذا فهو يختلف من كاتب لآخر.

فالأسلوب هو "مبدأ الاختيار ضمن إمكانات اللغة والألفاظ والتراكيب النحوية التي تصل أحيانا إلى درجة من الدقة بحيث نستطيع التعبير عنها بالأرقام، فنقرر مثلاً قوة بعضها ونتبع تطورها"⁽²⁾، معنى ذلك أن "المتكلم أو الكاتب يستخدم اللغة استخداماً يقوم على الانتقاء والاختيار ويركب جملة ويؤلف نصه بالطريقة التي يراها مناسبة"⁽³⁾، للتعبير عن فكرته أو لرسم الصورة التخيلية في ذهنه، أو لنقل الإحساس الذي يختلج في صدره.

لذلك تبقى "اللغة هي الوسيلة التي بها ننقل إلى الغير أفكارنا ووجداننا"⁽⁴⁾ فهي الوسيط الذي يعمل على تثبيت المفردات، وبناء المعنى، وكذا تنظيم عمليات التصوير لما يشاهده ويلاحظه ويحسه الرحالة عبر مسيرته، لكن دون المساس بعناصر السرد الأخرى، أي دون أن تكون الكلمة هي البطلة داخل السرد.

1- د. عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، ص89، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

2- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص375، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، 1996.

3- د. موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ص9، ط1، دار الكندي، الأردن، 2003.

4- عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، ناحية التحصيل، ص37، ط1، دار المعارف، 1986.

وهذه بعض الأمثلة الواردة في الرحلة، يقول: "الحمد لله، ثم ان من القضاء المقدور للبasha الريفى، باشا تطوان، وسوء القضاء والاتفاق، أنه لما آن من الله عليه بالعز والجاه والمال أراد أن يدعى الملك ويخطب لنفسه، فقبل له أن أهل المغرب لا ينظرون إلا آل البيت وأنت لست منهم، فاستظهر بعقد زوره أنه شريف، فلم يقبلوه منه لأنهم يعلمون أن أباه من أهل الريف الشلح يخدم الأغال، ثم ترقى إلى خدمة أغال مولاي اسماعيل حتى ترقى إلى الولاية، فنشأت له هذه النطفة الفاجرة المفسدة في الأرض"⁽¹⁾.

ويقول أيضاً:

"هذا وقد جمعت نظافة الازار، إلى البعد، فيما أعلم، عن العار كأنها درة مصونة، أو جوهرة مكنونة، ونسأل الله أن يحفظ الباقي من العمر، كما ستر السالف مما مضى ومر، فاشتبهت حواشيها، ولست ممن يحاشيها، فلهذا اخترتها أمّا لأولادي، وناققة لمطاري وتلاذي، علماً مني أن الدنيا دار كدر، وقليل فيها ما يسر"⁽²⁾.

يبدو أن ابن حمادوش يصف لنا في المثال الأول السبب الذي أدى إلى اندلاع الثورة في تطوان بين الباشا أحمد الريفى والسلطان مولاي عبد الله، فذكر أن الباشا لما كثر ماله تجبر، بل ووصل به الأمر إلى أن أراد السلطة لنفسه، فلم يتمكن من ذلك لأن أهل المغرب يعرفون ماضيه*، لذلك زور عقدا يدعى فيه أنه شريف، والظاهر أن خطته هذه فشلت، فكان هذا هو السبب إلى اندلاع هذه الثورة حسب ما نقله ابن حمادوش الذي كان شاهد عيان لها بحكم تواجده في المغرب أثناء اندلاعها سنة 1156هـ.

1- الرحلة، ص 91.

2- م، ن، ص 75.

*- أي أن أباه من أهل الريف الشلح يخدم الأغال.

أما في المثال الثاني فيذكر صاحب الرحلة محاسن زوجته الثانية زهراء أم ولديه الحسن والحسين، رغم كثرة شاكلة معها، حيث فارقتهم وذهبت إلى بيت أهلها بمجرد عودته من رحلته إلى المغرب، لأنها أدركت أنه أهمل التجارة التي هي مصدر رزق العائلة.

فمن خلال اللغة نستطيع تصور المعنى المقصود من النص، "قد تكون اللغة من حيث هي مفردات تنتظم في علاقات نحوية أولى مقومات البناء لكنها ليست الوحيدة تأتلف مع أنماط السرد وطرق الوصف، وأساليب الحوار"⁽¹⁾ داخل أي عمل أدبي، فالسرد في اللغة "تَقْدِمَةُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مُتَسِقًا بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مُتَتَابِعًا"⁽²⁾، وهذا المصطلح ارتبط بالسردية التي تعني الطريقة التي يقدم بها النص، فقصة واحدة يمكن أن تحكى بطرائق مختلفة، "ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكى بشكل أساسي"⁽³⁾، وبناءً على ذلك فإن "عملية الحكى تعتمد على عنصرين أساسيين هما:

- 1- أن يحتوي (الحكى) على قصة أو رواية مكونة من حدث أو أكثر.
 - 2- اختيار الطريقة التي تحكى بها هذه القصة، وتسمى هذه الطريقة سَرْدًا"⁽⁴⁾
- فالسرد – إذن – هو الكيفية التي تقدم بها القصة.

1- صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، ص123، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003.

2- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 9، ص165، ط3، دار صادر، بيروت، 2004.

3- د. حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، ص45، ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000.

4- العابدي خضراء، توظيف التراث الشعبي في الخطاب السردى الجزائرى عند الطاهر وطار، ص107، دراسات جزائرية 5/4، دورية محكمة يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر جامعة وهران، 2007.

واستناداً إلى ما سبق فإن "الحكي، هو بالضرورة قصة محكية يفترض وجود شخص يحكي، وشخص يحكى له، أي وجود تواصل بين طرف أول يدعى "راويًا" أو ساردًا (Narrateur) وطرف ثاني يدعى "مرويًا له" أو قارئًا (Narrataire)" (1)، وفي هذا الصدد نشير إلى أن المبدأ الأساس الذي تقوم عليه العلاقة التي تجمع بين الراوي والقارئ "هو مبدأ الثقة لأن القارئ ينقاد مبدئيًا نحو الثقة في رواية الراوي" (2)، لذلك يجب على الرحالة تحري الدقة والتزام الصدق في نقل أخباره ومعلوماته.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن السرد يشكل جزءاً أساسياً في الخطاب الرحلي، الذي يعرض فيه المؤلف الأحداث القابلة للبرهنة أو المثيرة للجدل والنقاش، "وعلى هذه الشاكلة، يكون (النص): فعالية كتابية، ينضوي تحتها كل من المؤلف الباث، والقارئ المتلقي، وبنتيجة التواصل والمشاركة التي بينهما يكون النص جزءاً من كلام موضح في منظور كلامي معين" (3)، معنى ذلك أن النص يقتضي وجود طرفين الكاتب (المتكلم)، والقارئ (المتلقي) وبما أن النص هو الخطاب ... فإن فعل أو عملية الإنتاج هي التي يمكن اعتبارها ... السرد، ومن خلال النص نتعرف على القصة باعتبارها موضوعه، والسرد باعتباره عملية إنتاجه" (4).

ولهذا تتسع جغرافية السرد لتشمل كل الأخبار والتراجم والمرويات وغير ذلك، "ليبدو السرد انطلاقاً من ذلك عبارة عن فعل لا حدود له، يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية بيدعه الإنسان أينما وجد

1- حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، م، س، ص 45.

2- م، ن، ص 45.

3- عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية، بين النظرية والتطبيق ص 18، د/ط، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.

4- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، ص 42، طه، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.

وحيثما كان⁽¹⁾، وضمن هذا الاطار يمكن لنا القول: أن رحلة ابن حمادوش تدرج ضمن النصوص السردية، لأنه نقل لنا بطريقته الخاصة الأحداث والوقائع التي عاشها وعاينها خلال جولته في المغرب.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "اعادة قراءة تراثنا الأدبي والفكري، ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجديد من مستلزمات تكوين فكرة دقيقة ومتجددة عنه، وعن أبرز ملامحه وسماته، كما أنه من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويتنا ومستقبلنا"⁽²⁾، فما تحفل به الرحلة من معلومات كثيرة ومتنوعة عن المجتمعين الجزائري والمغربي، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، كفيل باعطائنا صورة واضحة عن الأوضاع التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر الهجري (18م).

ولقد كشف البحث العلمي عن العلاقة التي تربط اللغة بالانسان وبيئته، ذلك لأن "كل نص ينبثق من واقع معين يعبر عنه بالضرورة"⁽³⁾، فالإبداع العلمي والفني ليس إبداعاً من العدم، ولذلك "يمكن تفسيره إلى حد ما على ضوء الشخصية والوسط، والملابسات التاريخية"⁽⁴⁾، وخير دليل على ذلك الدراسات الأنثروبولوجية* الحديثة التي بينت أهمية اللغة ودورها الكبير والفعال في دراسة خصائص ومميزات أي مجتمع.

1- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، ص19، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997.

2- م، ن، ص15.

3- د. حسين حمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ص266، ط1، منشورات الاختلاف،

الجزائر 1428هـ - 2007.

4- محمد يعقوبي، الوجيز في الفلسفة، ص195، ط3، مطبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1973.

* - هو علم الإناسة: يهتم بكل ما يخص الإنسان، كاللغة، اللباس، العادات والتقاليد ...

فاللغة - إذن - عنصر أساسي من العناصر المكونة للثقافة، بل تعتبر "أساس كل أنواع النشاط الثقافي (وهي بذلك خير دليل يهتدي به الباحث إلى معالم أي من المجتمعات الحديثة)، ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته تشغل اللغة مكاناً ذا أهمية أساسية، إذ هي أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع، وهي في الوقت نفسه رمز إلى حياتهم المشتركة وضمنان لها"⁽¹⁾، ولهذا فإن دور اللغة لا يقتصر فقط على الربط بين أفراد مجتمع بعينه، وإنما هي عامل مهم للربط بين الأجيال، فانتقال الثقافات عبر العصور لا يتم إلا بهذه الوسيلة، وذلك لأن "الكلمات مشحونة بسياقات اجتماعية وتاريخية وعادات ثقافية"⁽²⁾، فالنصوص الخالدة تعطينا صورة واضحة عن المجتمع الذي انبثقت منه، فمن خلال الرحلة نتعرف على طبيعة المجتمع الجزائري والمغربي، فهي (الرحلة) تحتوي على معلومات هامة عن الحركة العلمية والأدبية التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر الهجري، والتي خلفت لنا أسماء لامعة في العديد من المجالات حيث ما تزال بعض أعمالهم تشهد لهم بالحدق والمكانة في مجتمع عصرهم، أمثال محمد بن ميمون⁽³⁾، وابن عمار⁽⁴⁾ وغيرهم.

لغة السرد:

نقصد بها طريقة الحكّي، والوصف، والحوار إلى جانب الفصحى والعامية، فهذا ما سنحاول دراسته، ولنبدأ بـ:

1- إبراهيم السامرائي، التطور اللغوي التاريخي، ص143، ط3، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

2- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، ص12، د/ط، دار الثقافة، القاهرة، 1976.

3- صاحب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، كان يجعل داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء، وفيها وقعت الخصومة بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي.

4- كان أديباً وشاعراً، وهو الذي كتب تقريظاً نشره وشعرا لكتاب ابن حمادوش (الدرر على المختصر).

1- طريقة الحكّي:

نحن نعلم أن كل "حكي يتضمن - سواء بطريقة متداخلة أو بنسب شديدة التغير - أصنافاً من التشخيص لأعمال أو أحداث تُكوّن ما يوصف بالتحديد سراداً (Narration) هذا من جهة، ويتضمن من جهة أخرى تشخيصاً لأشياء أو لأشخاص، وهو ما ندعوه في يومنا هذا وصفاً (Description)⁽¹⁾، ومن الأمثلة الواردة في الرحلة عن ذلك مايلي:

"وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة، ثم من تجبره أراد أن يدعي السلطنة لنفسه، فلم يمكنه ذلك لأن عادة أهل المغرب لا يطيعون إلاّ الأشراف"⁽²⁾.

فصاحب الرحلة هنا يسرد لنا الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة في المغرب، حيث أن الباشا أحمد الريفي تجبر وكثر ظلمه للناس حتى قرر المكوس (الضرائب)، وبعد كل ذلك أراد السلطة لنفسه، فلم يتمكن من ذلك لأن أهل المغرب لا يخضعون إلاّ للأشراف وهو ليس منهم، ولقد لاحظنا أن ابن حمادوش انتصر للسلطان مولاي عبد الله لأنه شريف، فهو حسب رأيه الأحق بالسلطة.

ويقول أيضاً في وصف أحد شيوخه - أحمد بن المبارك -:

"وفي هذا اليوم لقيت سيدي أحمد بن المبارك، لقيت رجلاً عظيماً عند كافة أهل البلد، خفيف النفس، حلو المنطق، نحيف الجسم، حسن الملاقات، كأن به قبل أو حول، فسألته القراءة ففرح بذلك فرحاً شديداً"⁽³⁾.

1- حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، م، س، ص78.

2- الرحلة، ص75.

3- م، ن، ص83.

فمن خلال وصفه لشيوعه - بصفة عامة - نقول: "إن الرحلة وسيلة نافعة في كسب أصدقاء جدد يتعرف عليهم، ويعرف بهم أهل بلده ويتحدث عن فضائلهم ومحاسنهم....، فيؤدي ذلك إلى تعارف الشعوب وتحاببها"⁽¹⁾، وبما أن الرحلة عبارة عن مذكرات يومية لحياة ابن حمادوش، فإنه كان شديد الاهتمام بذكر كل الشيوخ والعلماء الذين لقيهم وتعرف عليهم، وحتى الأشخاص الذين لم يحسنوا معاملته كأولاد مختار الذين مر بهم خلال تنقله في المغرب، فقال: "إنه لم ير مثلهم في البخل وسوء معاملة الأضياف"⁽²⁾.

اعتمد صاحب الرحلة - إذن - على السرد والوصف معاً في مضمون رحلته، فإذا كان "السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكى، فإن الوصف هو أداة تشكل صورة المكان"⁽³⁾، ومما لا شك فيه أن المكان يعتبر "أكثر التصاقاً بحياة الإنسان من الزمان، ذلك أن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي مباشر، حيث يرتبط مع الإنسان طوال حياته، وأن وجود الإنسان لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان، كما أن إحساس الإنسان بالمكان هو إحساسه بذاته، فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، بل تنبسط خارج الحدود في مكان يمكن أن تتفاعل فيه"⁽⁴⁾، لذلك نلاحظ أن صاحب الرحلة كان شديد الإحساس بالبيئة يتفاعل معها بشكل رائع، فهو كثيراً ما ينقل لنا إعجابه الشديد بالمروج التي مر بها أثناء تنقلاته في المغرب، يقول مثلاً "وبتنا في أول المرج الطويل، الذي به طير الماء من غر وبط وغيره

1- الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، م، س، ص 28.

2- يراجع الرحلة، هامش، ص 72.

3- حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، م، س، ص 80.

4- د. نبيلة إبراهيم، فن القصة (في النظرية والتطبيق)، ص 139، 140، د/ط، دار قباء، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د/ت.

كثير لا قليل ...، ومنه قطعنا وادي سب، الذي كل يجوزه بالقارب حسب كأنه نيل مصر، أو قطعة من البحر"⁽¹⁾.

لاحظ ابن حمادوش كثرة الطيور في هذا المرج من بط وغر وغيره، كما لاحظ أيضاً أن وادي سب يقطعه الناس بالقوارب فقط لعمق مائه، فشبهه بالنيل أو قطعة من البحر.

لذلك فالمكان في الرحلة ليس مجرد اطار للأحداث والشخصيات فقط، وإنما هو عنصر مهم وفعال باعتباره مرتبطاً بالأحداث التي تم سردها، كما نلاحظ أيضاً أن المكان يشكل "مجموعة من الخطوط المتشابكة المعقدة التي يرجع تعقيدها في الواقع إلى تشابه المرجعيات لديه، وهي مرجعيات -كما مرّ بنا- تتيح مساحة جغرافية شاسعة ومتنوعة لتنوع مصادرها وامكاناتها ...، والمعروف أن الفضاء المكاني ...، لا يأتي في الغالب منفصلاً عن دلالاته الحضارية"⁽²⁾، لهذا فإن أغلب الأماكن التي ذكرها مؤلف الرحلة هي عبارة عن أماكن عاش فيها كالجزائر، وأماكن أخرى زارها كالمغرب.

الظاهر أن المغرب استحوذ على اهتمام ابن حمادوش، حيث نجده كثير الحركة والتنقل فيه، وبتصاله المباشر بالطبيعة والناس لم يترك شيئاً شاهده أو لاحظته فيه، إلاّ وتحدث عنه وقام بوصفه، ولذلك يعتبر "الوصف في السرد ضرورة لا مناص منها له، إذ يمكن أن نصف دون أن نسرد، ولكن لا يمكن أن نسرد دون أن نصف"⁽³⁾.

1- الرحلة، ص72.

2- د. ثناء أنس الوجود، قراءات نقدية في القصة المعاصرة، ص47، د/ط، دار قباء، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

3- د. عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، ص266، د/ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

2- الوصف:

فالوصف - إذن - هو الذي يحدد مسار السرد، وذلك من خلال وصف الرحالة للأماكن التي حل بها، كما يصف الأحداث التي عاشها والشخصيات التي تعامل معها، فيصف الحركات والألبسة والعادات والتقاليد، أي أنه يعمل على تقديم كل التوضيحات والتفاصيل للمتلقي، "ولا ينهض الوصف بوظيفته السردية حتى يشمل المناظر الطبيعية والأخبار الخارجية: كالريح والمطر والشمس والقمر والليل وما فيه من ظلام، ووصف الأمكنة الحضرية كالشوارع والأحياء والمساحات الخضراء ووصف الأمكنة الطبيعية كالجبال والسهول وهلم جرا"(1).

يقول مثلاً:

"خرجت من فاس... فظللنا سائرين إلى آخر النهار فترلنا في دوار عرب بين واديين يقال له بوشابل ورفعنا من هناك، سرنا النهار كله إلى العشية، بل قبل الظهر أو قريب منه، نزلنا تحت بني ورياكل تحتها وهي دشور بتنا على عين مائها عند الصفصاف، ورفعنا منها... وظللنا سائرين إلى وسط جبل يقال له الطليب على عين الدفلة قريب من شجرة بلوط عظيمة تسع مجلس خمسين شخصا"(2).

نحن نعلم جميعاً أن الوصف "إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"(3)، بلا زيادة أو نقصان، ولهذا يجب على الرحالة تحري الدقة والصدق في نقل معلوماته، ولعل "أهمية الوصف أن تأتي إليه من كونه صادراً عن طبع، ودفق، وسليقة كما أنه ينبثق غالباً عن تجربة شخصية معيشة"(4)، وهذه بعض

1- د. عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، م، س، ص 256.

2- الرحلة، ص 78.

3- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق، كمال مصطفى، ص 134، د/ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1963.

4- د. عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، م، س، ص 61.

النماذج الواردة في الرحلة، يقول مثلاً في وصفه لإحدى القرى التي مر بها أثناء تنقله من تطوان متوجّهاً إلى مكناس:

"تعدّينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حرٌّ، مهدمة البناء، نائية الماء، ومع أنها كبيرة المنشأ قليلة المشا، عددت بها ثلاث عشر صومعة سوداءات"⁽¹⁾. ويقول أيضاً عن مجلس الحكيم عبد الوهاب أدراق:

"... ثم إني جالس معه في مجلس حسن، كأن له مجلساً من مجالس الملوك، بيت في رياض من نواور شتى ونارنج وعنبر، ومياه، والناس يقصدونه هناك للتداوي"⁽²⁾. كما يقول في وصفه لعيد الأضحى أثناء اقامته في تطوان:

"وفي يوم السبت صنع عيد الأضحى بغتة، وكان مطر غزير، وسحاب ليله ونهاره، إلى الضحاء أتت بينة من طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلى، فخرج قائداهم في جماعته وبين يديه حربة عالية طويلة جداً وأمامه نحو المائتي مسخر حاملة المكاحل كلها، وهم يرمون، ومعه نحو الخسمة أو نحوها، فصلينا، والمطر نازل علينا، خارج البلد، وخطب بنا امام نسيت اسمه، هو عظيم جامع القصبة"⁽³⁾.

كما - سبق وذكرنا - امتازت الرحلة "بميزة الحديث عن التقاليد والعوائد الاجتماعية، ومواضيع الناس في سمت كلامهم ولباسهم ومطعماتهم ومشروباتهم...، وذكر المؤلف المأنوس من العادات والناظر الشاذ منها"⁽⁴⁾، يقول مثلاً في وصف عادة الجزائريين وأهل فاس في الاحتفال بالمولد النبوي:

1- الرحلة، ص72.

2- م، ن، ص82.

3- م، ن، ص107.

4- د. محمد مسعود جبران، فنون النشر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، المجلد الثاني، ص56، ط1، دار المدار الاسلامي، ليبيا، 2004.

"لقيت الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع، كل واحدة من لون، واحدة من لون، احدها خضراء، وأخرى بيضاء، وأخرى حمراء، والرابعة نسيت لونها، أخف مما يجعل في الجزائر عندنا"⁽¹⁾.

ويقول أيضاً في وصف بعض العادات التي لم يستحسنها:

"من أقبح ما في المغرب كله حماماتهم، ويبدون عوراتهم فيها"⁽²⁾.

كما يقول في وصف ما لاحظته في فاس:

"ومنها أن رجالها لا يتعممون إلا القليل، وأن نساءها لهم عمام كبار، أما من حرير فثمانية عشر ذراعاً بذراع بني آدم المعلوم في الأسواق، وأكثر، إما أبيض أو نصفه زبيبي ونصفه عكري، أو يتعممون بالشاش الهندي، أو بالشقة الجيدة المصري، وبهذا كان يمازح شيخنا سيدي محمد بن ميمون، يقول: أين منعت الذكران من التيجان وبرزت ربات الحجاب، بعمائم الرجال...، ويقول: وذلك كأهل فاس"⁽³⁾.

بالإضافة إلى وصف الأماكن والأشخاص نجد ابن حمادوش يقدم لنا وصفاً

في غاية الدقة للحيوانات التي شاهدها في المغرب، يقول مثلاً في وصفه لطائر الغر:

"والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون، وبين عينيه غرة بيضاء"⁽⁴⁾.

ويقول أيضاً في نفس الموضوع:

"ومن غريب ما رأيت أن من القصر إلى مشرع الرمل، أكثر بقرها بيض،

فان لم تكن كلها بيضا ففيها شيات، ما رأيت مثل هذا المحل في شدة بياض البقر"⁽⁵⁾.

1- الرحلة، ص 84.

2- م، ن، ص 94.

3- م، ن، ص 94، 95.

4- م، ن، ص 73.

5- م، ن، ص 74.

هذه بعض النماذج عن الوصف الوارد في متن الرحلة، فالمؤلف كان لا يترك شيئاً شاهده إلاّ ووصفه وعلف عليه، والأمثلة خير دليل على ذلك، ولهذا فالرحلة - بصفة عامة - سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة التي عاشها مؤلفها، وهنا تتجلى لنا القيمة العلمية للرحلة، لأن الرحلة ضمن رحلته الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي يمكن أن تم الباحثين كل بحسب اختصاصه.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن هذه المعلومات المختلفة لا بد لها من تاريخ دقيق يضبطها، لذلك لا يمكن أن نفصل الزمن عن المكان في الرحلة، لأننا لا نستطيع "وصف المكان دون ذكر الزمن أي التاريخ الدقيق لوقوع أحداث معينة في أمكنة معينة"⁽¹⁾، فالزمن يرتبط هو الآخر بالإنسان ارتباطاً وثيقاً، فمن خلاله نقوم بتحديد تاريخ الإنسان وكل الكائنات الأخرى، فهو يمثل الوجود، كما يحدد الفترة التي كتبت فيها أعمال الكتاب، ويبين تاريخ الأحداث التي عاشوها، "فالزمن، إذن، ضرب من التاريخ، والتاريخ هو أيضاً في حقيقته ضرب من الزمن، فهما متداخلان، بل هما شيء واحد، يبقى فقط التمييز بين حدث ابداعي يقوم على الخيال البحث، وحدث تاريخي يُزعم له أنه يقوم على الحقيقة الزمنية بكل ما تحمل من شبكية تستمد حبالها المعقدة من الإنسان وحياته، وصراعه واصراره"⁽²⁾، فالزمن بهذا يقتضي أثرنا، ويتتبع خطواتنا ويرصد حركاتنا حيثما نكون، وتحت أي حال من الأحوال.

1- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)،

م، س، ص 228.

2- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص 273، 274، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005.

لقد اعتمد صاحب الرحلة على عنصر الزمن أي سرد الحوادث زمنياً، وهو ما يربط بين أجزاء مضمونها، فالرحلة تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي، "ذلك أن طريقة عرض الحوادث فيها كثيراً ما يتخللها الانتقال والاستطراد ثم العودة إلى الموضوع الرئيسي (وهو عامل الزمن، أي سرد الحوادث زمنياً)، ويظهر ذلك بالخصوص أثناء إيراد ابن حمادوش لطريقة قراءة صحيح البخاري في الجزائر، وإيراده قائمة ولاية الجزائر، وعقود الزواج"⁽¹⁾، بالإضافة إلى القصص والنقول المختلفة، والمذكرات اليومية.

وبناءً على ذلك تم تقسيم محتوى الرحلة إلى ثلاثة أقسام - كما سبق وأشرنا في المدخل - قسم عن المغرب، وقسم آخر عن المؤلف نفسه في الجزائر، وقسم يتضمن نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين له، فهذه الأقسام الثلاثة لا يوجد رابط يربط بينها سوى الترتيب الزمني.

فالزمن الذي كان يعيشه صاحب الرحلة هو زمن عادي حقيقي، لأنه كان يسرد الحوادث والوقائع كما هي دون مبالغة، بل كان يجهد نفسه في تحري الدقة والصدق، كوصفه لوقائع وأسباب ثورة محمد الريفي حاكم تطوان على السلطان مولاي عبد الله، فهو سرد أحداثها وتفاصيلها ونتائجها والنهاية التي آلت إليها.

فلا بد للرحالة - إذن - أن يكون على دراية ومعرفة بطبيعة الحياة في تلك الفترة، بالإضافة إلى الإلمام بالحياة السياسية أيضاً لأن هذا النوع من "القصص يتطلب معرفة تامة بالحياة الاجتماعية والسياسية في الفترة التي يؤلف لها القاص، لا مجرد الإلمام بمظاهرها، أو الاعتماد على سرد روايات تاريخية في تصويرها، وإلا جاءت الصورة مكرهة، مفتعلة، ولا يصح الاعتماد في إحياء الفترة التاريخية على شيء

من الخيال، وخلطه بالمعلومات التاريخية، وإلاّ خرجت الصورة زائفة لا تكشف عن غرض الكاتب في التأريخ للفترة التي يصفها"⁽¹⁾.

فابن حمادوش عاش أحداث تلك الثورة، وعان تطوراتها ومجرياتهما كما أنه تأثر بنتائجها، حيث كسدت تجارته بسبب قلة ما يشتري ويبيع في الأسواق، إلى جانب ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة، ولهذا فصاحب الرحلة شاهد على تلك الفترة الهامة في تاريخ المغرب، وهو ما جعل الدكتور محمد داود يعود إلى الرحلة لنقل تلك الأحداث التاريخية⁽²⁾.

لقد اعتاد صاحب الرحلة أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي)، ونادراً ما كان يؤرخ بالتاريخ الاسكندري، فلمتفحص لمضمون الرحلة يلاحظ أن سنوات الانتقال التي تشكل في الواقع أبواب الرحلة وفصولها كانت بالتاريخ العربي.

يقول مثلاً عن ذهابه إلى مكناس انطلاقاً من تطوان:

"فدخلت مكناسة عند الزوال من يوم الأحد سادس وعشرين صفر من عام 1156 الموافق عاشر أبريل من سنة 1743 مسيحية"⁽³⁾.

كما يقول عن خروجه من مكناس متوجهاً إلى فاس:

"وصباح الخميس خرجنا ضحى من مكناس في قافلة عظيمة...، فسرنا السير الحثيث حتى دخلنا فاس، بعد صلاة المغرب بكثير، ونزلنا في فندق النجارين، فأصبحنا يوم الجمعة بها تاسع* ربيع الأول من عام 1156 الموافق لثاني وعشرين أبريل

1- د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص541، ط1، دار الثقافة، لبنان، 1973.

2- يراجع محمد داود، تاريخ تطوان، القسم الثاني، المجلد الثاني، م، س، ص230.

3- الرحلة، ص77.

* - بذلك يكون المؤلف قد أقام في مكناس حوالي أحد عشر يوماً.

من سنة 1743 مسيحية⁽¹⁾، وبذلك يكون مؤلف الرحلة قد قطع المسافة بين تطوان ومكناس في ثمانية أيام بدليل قوله:

"فخرجنا من تطوان إلى السفر، يوم السبت ثامن عشر صفر، فبتنا بوادي بوصفيحة"⁽²⁾.

كما نجد صاحب الرحلة يوظف بعض الشخصيات التراثية، وذلك لأن "المعطيات التراثية تكتسب لوناً خاصاً من القداسة في نفوس الأمة ونوعاً من اللصوق بوجداننا لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة ...، وكل معطى من معطيات التراث يرتبط دائماً في وجدان الأمة بقيم روحية وفكرية ووجدانية معينة، بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى أو ذاك من معطيات التراث لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي ارتبطت به في وجدان السامع تلقائياً"⁽³⁾، فلا غرابة - إذن - أن نجد ابن حمادوش يفسح المجال في رحلته لهذه الشخصيات "التي تتجاوب معه، والتي مرت ذات يوم بنفس التجربة وعانتها كما عاناها هو نفسه"⁽⁴⁾، ومن الأمثلة الواردة في الرحلة عن ذلك قوله:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَصْبَرَ صَابِرٍ	وَهَا أَنَا فِي هَذَا الْأَوَّانِ ذَلِيلٌ
أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَةً	نَوَاحِي الشَّكَايِ تَحْسَبُونِي جَمِيلٌ
بُشَيْنَةٌ عِنْدِي وَإِنِّي جَارُهَا	وَفَارَقْتُهَا، كَرَهًا، فَإِنِّي عَلِيلٌ
وَقَدْ أَذْرَكَ الْعِيدُ الْخَيْلَ دِيَارَهُ	عَلَى شَطَطٍ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلٌ

1- الرحلة، ص 80.

2- م، س، ص 71.

3- د. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 16، د/ط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1417هـ - 1997.

4- د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 307، د/ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.

فَلَوْ كَانَ طَيْرٌ يَطِيرُ بَبَغْيَتِي إِلَى دَارِ زَهْرًا بِالْكِتَابِ يَدِيلُ⁽¹⁾

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الشخصيات هي عبارة عن مؤشرات زمنية استخدمها مؤلف الرحلة لتعميق الفكرة وتوضيحها أكثر، فهو حين وظف شخصيتا جميل بن معمر ومحبوته بشينة، إنما أراد من وراء ذلك جعل القارئ يتصور الحالة الصعبة التي يعيشها بسبب بعده عن زهراء (زوجته الثانية)، فالعودة إلى التراث العربي لخدمة المعنى والفكرة، ليس إلا خضوعاً لمتطلبات السرد التي تقتضي سرد الماضي منذ فجر التاريخ الأدبي الإنساني⁽²⁾.

ويقول أيضا في شيخه البناني:

أَيَا شَيْخَنَا الْبَنَانِي الْأَسْمُ مُحَمَّدُ فَقَدْ شَهِدَتْ لَكَ الْأَكَابِرُ بِالْفَضْلِ
كَأَنَّكَ لُقْمَانٌ فِي عِلْمِكَ وَاهْدَى أَوْ أَنَّكَ حَسَانٌ إِذَا فُهِتَ بِالْقَوْلِ⁽³⁾

ويقول في قصيدة أخرى له في شيخه أحمد بن المبارك يمدحه فيها، ويصف حالة العيون في عصره:

لَقَدْ عَمَّ بَحْرُ الْجَهْلِ حَتَّى رَأَيْتُهُ مُحِيطًا بِآفَاقِ الْأَنَامِ عَلَى الْبَرِي
وَقَدْ صَارَ كُلُّ دِيكَ يَصْرُخُ وَحْدَهُ وَدَعْوَتُهُ تَحْكِي مُسَيِّلَمَةَ الشَّرِي⁽⁴⁾

الظاهر أن مؤلف الرحلة حين وظف هذه الشخصيات التاريخية كان يهدف إلى جعل القارئ (المتلقي)، يسقط ماضي هذه الشخصيات على الحاضر الذي يقدمه له بما فيه من شخصيات وأحداث لهذا "الماضي" في السرد المكتوب يعني الحاضر على الحقيقة، لأن السرد يتعلق باللحظة التي الكاتب فيها أما ماضيه الذي يسرد منه،

1- الرحلة، ص 108.

2- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، م، س، ص 281.

3- الرحلة، ص 31.

4- م، ن، ص 83.

أو يحكي عنه ، فهو مجرد خدعة سردية"⁽¹⁾، يستخدمها الكاتب لاستثارة القارئ وجلب انتباهه.

لذلك نلاحظ من خلال توظيف ابن حمادوش لشخصيتي لقمان الحكيم وحسان بن ثابت عند حديثه عن شيخه محمد البناني، إنما أرادنا أن نتصور مكانة هذه الشخصية والتي تبرز من خلال العلم والحكمة والتقوى، وفصاحة اللسان، كما أرادنا أيضاً أن نتصور من خلال توظيفه لشخصية مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة حالة العلوم في عصره حيث أصبح كل شخص يدعي المعرفة والعلم. إذن، فاستدعاء الشخصيات التاريخية وتوظيفها في المنجز الرحلي كان ذا أهمية كبيرة، من حيث توضيح الصورة، وتعزيز الفكرة وتعميقها لدى القارئ حين يصادف مثل هذه الشخصيات وهو يقرأ الرحلة.

كما يبدو أن أغلب الأحداث التي وردت في الرحلة قد دارت في زمن الصباح والمساء، وحتى الليل، وفي ذلك دلالة أخرى على اهتمامه الشديد بالدقة في تحديد عامل الزمن، ومن أمثلة ذلك حديثه عن موعد سفره إلى الجزائر انطلاقاً من مرسى تطوان، وكان ذلك عام 1157هـ يقول عن ذلك:

"وكان يوم الأحد أول يوم من صفر فأقمت هناك ليلة الاثنين والثلاثاء والأربعاء، إلى آخر النهار طلع بقية أصحابنا فبتنا ليلة الخميس مهئين مسافرين، لأن سفرنا عند غروب الشمس ليلته، إلى أول ساعة من يوم الاثنين التاسع من الشهر المذكور موافق ثاني عشر من مارس دخلنا مرسى الجزائر"⁽²⁾.

وبذلك استطاع ابن حمادوش أن يحتوي عنصر الزمن في رحلته من خلال الأهمية الكبيرة التي يوليها له، شأنه في ذلك شأن المؤرخ، فهو لا يترك شيئاً إلا

1- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، م، س، ص 304.

2- الرحلة، ص 113، 114.

وتحدث عنه انطلاقاً من ساعة ويوم وشهر وسنة وقوعه، غير أن التركيز في تحديد عنصر الزمن يبطل أدبية الرحلة، غير أننا لا نقلل من قيمتها كمصدر هام للباحثين في التاريخ وعلم الاجتماع.

تماهي الزمان والمكان في الرحلة:

يشكل المكان والزمان جزءاً هاماً في بناء الرحلة ذلك أن كل منهما يحمل ذكرى ما لشخصية عبد الرزاق بن حمادوش، فحركة هذه الشخصية من مكان إلى آخر تعني البحث عن وضع جديد فصاحب الرحلة هو الذي يتحكم في سير خطواتها لأنها تعكس آرائه وتحمل ملاحظاته.

لذلك "لا نبالغ ان قلنا إن المكان أكثر التصاقاً بحياة الإنسان من الزمان، حقاً إن الحس بالزمن يعد عنصراً أصيلاً في بناء الإنسان الفكري والنفسي، ولكن إدراك الإنسان للزمن لا يكون إلا رهناً استدعاء الإنسان له، فهو يستدعي الماضي لحينه إليه أو يستدعي الحاضر لقلقه عليه، أو يستدعي المستقبل لأمله فيه أو يأسه منه...، فإننا لا نستطيع أن نقول إن إدراك الإنسان للزمن إدراك غير مباشر، فهو يتحقق من خلال فعل الإنسان وعلاقته بالأشياء، في حين أن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي مباشر، وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمره"⁽¹⁾.

وما ينبغي الإشارة إليه هو أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين كل من المكان والزمان في مضمون الرحلة، ذلك لأن الوقوف عند المكان يتطلب استحضار الزمن كشاهد على هذا الوقوف أو على هذا المكان، ولهذا لا يمكن أن نتحدث عن المكان في الرحلة منفصلاً عن الزمان نظراً لطبيعة التأزم بينهما، فلاحركة من الحركات إلا وتستغرق زمناً، ولا زمن بدون مكان، كما أن عنصر الزمن في الرحلة هو الذي

1- نبيلة إبراهيم، فن القص (في النظرية والتطبيق)، م، س، ص 139.

يربط بعضها ببعض نظراً لعدم التزام مؤلفها بالتسلسل في ترتيب الأحداث فيها حسب وقوعها فعلاً.

هناك زمنين يتبادلان الدور عبر مسار الحدث، وهما: الماضي والحاضر، الماضي الذي يمثل ما فات ومضى من الأحداث والوقائع والأخبار كإيراد ابن حمادوش لقصة الفيل، وقائمة ولاية الجزائر، وطريقة احتفال الجزائريين في ليلة القدر وليلة المولد النبوي الشريف، أما الحاضر فهو يمثل الزمن الراهن الذي يعيشه صاحب الرحلة، ويتجلى لنا ذلك من خلال سرده لوقائع وأحداث ثورة أحمد الريفي ضد السلطان مولاي عبد الله، والتي كان شاهداً عليها - سبق وأشرنا إليها - ضف إلى ذلك الصعوبات التي واجهته في المغرب انطلاقاً من عادة المكس بتطوان إلى هجوم العربان على القافلة التي كان فيها أثناء مرورها بفاس.

لهذا يظل حاضر المكان في حاجة ماسة إلى ماضي المكان "الذي يستجلي منه مسببات ذلك التردد...، ومعرفتنا بماضي المكان لا تأتي إلاّ من خلال حاجة الحاضر إلى ذلك بغية الكشف عن منطقية الأشياء أي منطقية فكرة النص وايدئولوجيته، فالحاجة إلى ذلك الحل المستقبلي"⁽¹⁾، فمستقبل المكان لا ينطلق إلاّ عبر ماضي المكان، وهذا الماضي لا يمكن الرجوع إليه إلاّ عبر تسخير الزمن، فهذا الأخير يستطيع اختراق الواقع والرجوع بنا إلى الماضي، ولذلك لا يمكن لنا أن نفصل بين المكان والزمان في الرحلة نظراً للتفاعل الكبير بينهما، فكلاهما يساهم بشكل أو بآخر في بناء واكتمال وتوازن مضمون الرحلة.

1- د. إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، ص 47، د/ط، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

3- الحوار:

يجرى الحوار عادة بين شخصية وشخصية أخرى⁽¹⁾، أو بين مجموعة من الشخصيات حيث تتبادل الحديث والنقاش فيما بينها، لذلك "يختلف الحوار عن الأسلوب المباشر في كون هذا الأخير يكون فيه أحد الطرفين غائبا ويتكفل الطرف الحاضر بنقل خطاب الطرف الغائب، أما الحوار فهو خطاب متبادل في اللحظة نفسها، لأنه يستدعي حضور الطرفين معاً، وهو حضور زمني أيضاً"⁽²⁾، فمن خلال قراءتنا للرحلة لاحظنا أن مؤلفها أورد بعض الحوارات وهذا أمر طبيعي كونه كان يلتقي ويتعامل ويتناقش مع شخصيات كثيرة تمثل فئات مختلفة من المجتمع، من علماء وشيوخ وتجار وأعراب، وغيرهم.

يتميز الحوار في نص الرحلة بمظهره المشهدي، لأنه يسعى إلى المقابلة بين الشخصيات في إطار علاقات الاختلاف والائتلاف التي تربط بينها، لهذا نجد (الحوار) "يعبر عن نفسيات الشخصيات"⁽³⁾ تعبيراً ملائماً للمواقف التي تواجهها.

غير أن الحوار في الرحلة لم يكتسح مساحة كبيرة من السرد، فلقد تمثل في بعض المواقف القليلة، أطولها ما جمع بين المؤلف وشيخه أحمد الورززي*، حين ناقشه حول مسألة أفضلية الملائكة أو الرسل، وهذا نموذج من ذلك الحوار، ومما جاء

1- يراجع عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، م، س، ص 176.

2- يراجع عبد القادر الشاوي، اشكالية الرؤية السردية (السارد أو الصوت السردية)، ص 88، ع 2، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، 1987، 1988.

3- عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، م، س، ص 496.

*- سبق وأن أشرنا إلى هذا الحوار، وما ترتب عنه من استقلال كل واحد منهما في الرأي، في الفصل الأول الخاص بالفكر الديني للمؤلف.

فيه قوله: "فقلت له: أن الأشعري⁽¹⁾ يأبى هذا، وظننت أني لجأت إلى كهف حصين، فغضب وقال: ما هو إلا أن حبه أشرب في قلوبكم، فأمسكت عنه إلى الغد، فالتقيت معه في جامع لو كس، فقلت: أتقول بتفضيل الملك على الأنبياء ولم تستثني سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم؟ قال لي: أوليس يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾⁽²⁾، وهو جبريل، ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم؟ ثم لما أكثر علي، قلت له: إني لم استحضر الجواب، ومن جملة ما قال لي: وأن أبا الحسن الأشعري لم ينعقد عليه اجماع الأمة بل انعقد عليه اجماع أهله السنة، فقال: اذهب فاستنجد علي بمن شئت، فذهبت أفكر في الجواب، فوجدته عمم فيه فاستحضرت منه جوابا.

ثم تكلمت مع الشيخ الفاضل البناني فقال لي: مالك ولذلك المعتزلي...، ثم قال لي: لئن كان دليله من الكتاب فدلينا على أفضلية النبي من الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾⁽³⁾، فيه دليل على أنه علم الملائكة أجمعين، والاجماع منعقد على أن سيدنا محمدًا، صلى الله عليه وسلم، أفضل منه، فهو أفضل من الملائكة"⁽⁴⁾.

فانظر إلى هذا الحوار* كيف كان يعبر عن موقف ابن حمادوش المعارض لرأي شيخه أحمد الورززي، حول مسألة تفضيل الملك على الإنس، ثم كيف كان يمهّد

1- هو أبو الحسن علي بن إسماعيل ولد بالبصرة، وعاش في بغداد توفي بها سنة 330هـ، يراجع الرحلة، هامش، ص66.

2- سورة النجم: الآية 5.

3- سورة البقرة: الآيات 31، 32، 33.

4- الرحلة، ص66.

* - هذا الحوار هو أطول النماذج الحوارية التي عثرنا عليها في الرحلة.

لسير الحوادث تمهيداً طبيعياً قائماً على قدرة صاحب الرحلة على المناقشة وإبداء رأيه بشكل صريح وجريء، رغم أن الورززي هو شيخه.

ويقول أيضاً عن السبب الذي جعل الأعراب لا يتعرضون للقافلة التي كان فيها، حين مرت بتطوان وصادف ذلك وقوع القتال فيها بين الثائر أحمد الريفي والسلطان عبد الله، يقول: " فهذا سبب العرب حتى طمعت فينا، قالوا وان الوقت لا سلطان له، فمن فعل شيئاً فاز به، فلما وجدوني رزاءً صعباً أيقنوا ان أمري لا يعود عليهم بخير، وكبارهم نمت أصاغيرهم، فقالوا لهم: إن أكلتموها نابكم مثقال، وما من أحد وله أقفزة مبدرة في الأرض، وهذا رجل شريف لا طاقة لكم به، وقد أراني الله في أعينهم كبيراً، والحمد لله" (1).

لا ندري حقاً من الذي جعل الأعراب لا تتعرض للمؤلف، غير أننا نلاحظ من خلال الحوار الذي جرى بين الأعراب أنه ذكر لهم الشرف، واستخدمه كوسيلة لإقناعهم حتى لا يتعرضوا للقافلة التي كان فيها، وعلى ما يبدو من هذا الحوار فقد بالغ المؤلف في بيان حصانته وقوته ويقول أيضاً عن جنازة شيخه أحمد بن المبارك:

"كان من أولياء الله الصالحين، وحضر جنازته خلق كثير، حزرتها عند رجوعهم، تقرب من ألفي رجل وخمسين امرأة، وبعد وضعه في قبره كسرت العامة نعشه وأخذوه قطعاً، فمنهم المقل ومنهم المكثّر، حتى أن بعضهم أخذ كالخلال*، وسمعنا رجلاً بيده قطعة، قيل له فيها، فقال: ما لحقتها حتى نلت ما نال الفكرون على ظهر، فوجدت الناس عليه لأنه كان ينفعهم بما يمكنه، وقال لي عمه: بتنا على قبره ليلة، ليلة الاثنين الموالي لموته، والطلبة كثير، فقرأنا عليه ختمتين من القرآن العظيم، وقلت: في نفسي لعلي أراه، قال فنمت فإذا برجل جلس معي وقال لي: لن ترى

1- الرحلة، ص 77.

* - أي قطعة صغيرة من الخشب في حجم الأصبع أو أقل.

الشيخ الليلة فان أرواح الناس يذهبون إلى النبي (ويرجعون من حينهم) وروحه بقية عنده إلى الآن، وان الصالحين مشتبكون في أمره متحIRON لأن عادتهم اذا مات ولي أخذوا من سائر الناس وجعلوه موضعه، وأما إذا مات ولي عالم تحيروا في من يأتون به موضعه، نسأل الله أن يوفقنا لصالح الأعمال والأقوال" (1).

تدل رواية هذه القصة على أن الشيخ أحمد بن المبارك كان ذا مكانة عالية جعلته يحظى باهتمام كبير حتى بعد موته، غير أن الذي يستوقفنا هنا هو ذلك الحوار الذي جرى بين عم الشيخ والرجل الذي رآه في المنام، فإيراد هذا الحوار يدل على إيمان مؤلف الرحلة بهذه القصة، وهو ما لا يتفق مع ما عرف عنه من استقلال وعلمية.

4- الفصحى والعامية:

كما هو معلوم أن "اللغة هي مفتاح المعرفة، وأداة التواصل بين الناس على الأرض" (2) إلى جانب كونها "مادة الأدب الأساسية وتلك المادة تتعرض للتغير والتحول لدواعي الاستعمال وتبدل الظروف الثقافية" (3) والاجتماعية من عصر لآخر.

لذلك فاللغة من حيث هي نظام "معرضة كي تعيش لفعل الاختراق والتخريب الدائمين ولكن في حدود ما يسمح لها بأن تبقى أرضاً للتفاهم، والتخريب لا يلغي مساحة الاصطلاح، ولا يلغي حركة الانتظام في تبدلها، بل هو حياة اللغة

1- الرحلة، ص 86، 87.

2- كمال الرياحي، كتاب عمان¹، حوارات ثقافية في الرواية والنقد والقصة والفلسفة، حوار مع الدكتور عبد المالك مرتاض، ع 112، ص 55، الرأي مطابع المؤسسة الصحافية الأردنية، تونس، 2003.

3- د. عبد الله ابراهيم، السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ص 92، ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003.

وتطورها"⁽¹⁾، فالكاتب وهو يعيش أجواءه الخاصة ينتج دلالات خاصة به، تفرضها مؤثرات البنيات الثقافية والاجتماعية المحيطة به.

فاللغة تحيا وتتطور بالاستعمال، ومن هنا "فالعربية شفيعة التعبير منذ أن كانت، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ملتزمة بضوابط الاعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم عناء هذه الضوابط، وربما تعدى الأمر مسألة الاعراب إلى الألفاظ نفسها"⁽²⁾، فهذا التساهل في التعامل مع اللغة والتسيب في استعمالها أدى إلى ظهور العامية، والتي تشكل بدورها مشكلة لغوية، "وذلك لأن العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب، وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق إلى لغة المثقفين في مادتها"⁽³⁾، ونقصد بالعامي "ما ينظم في اللغة العامة بلا ملاحظة الإعراب أو اللغة وأن يؤتى بالألفاظ كما ينطق بها"⁽⁴⁾، ومن الأمثلة الواردة في الرحلة عن ذلك نجد ابن حمادوش يقول مثلاً:

"وعادة متولي الجامع الكبير يفرغ قنطار أو أكثر شمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضر مابين الثلاثة أرتال إلى الأربعة في كل واحدة"⁽⁵⁾.

فكان الصواب أن يقول:

"وعادة متولي الجامع الكبير يفرغ قنطاراً أو أكثر شمعا يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء مابين الثلاثة أرتال إلى الأربعة في كل واحدة".

ونحن نعلم جميعاً أن العامية في الثقافة العربية لها موقع مهمش إذا ما قورنت باللغة الفصحى، "ومن أجل كل ذلك يجب أن تكون اللغة عظيمة الشأن رفيعة

1- العيد يعني، في معرفة النص، ص32، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1983.

2- إبراهيم السامرائي، التطور اللغوي التاريخي، م، س، ص58.

3- م، ن، ص62.

4- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، ص372، د/ط، موفم للنشر، لبنان، 1993.

5- الرحلة، ص125.

القدر، كريمة المكانة، عالية القيمة: لدى كل الأمة لأنها مضطرب تاريخها وحضارتها، وجراب رقيها وانحطاطها، ومن أجل ذلك كله يجب أن نعيد أهمية اللغة للغة الإبداع، أو اللغة في الإبداع، وذلك على أساس أنها هي مادة هذا الإبداع وجماله، ومرآة خياله، فلا خيال إلا باللغة، ولا جمال إلا باللغة⁽¹⁾.

فمن خلال اللغة الفصيحة استطاع ابن حمادوش أن يبين قدرته على كتابة المقامة، محاكيا بذلك أساليب الكتاب الكبار في هذا الفن يقول مثلاً في المقامة الحالية التي تعتبر من أجود مقاماته:

"وبعد، لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خف الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الأخوان، وقلت الأخدان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة وسهلت الخسارة، قرنت بجارة* غرة، عيشتها مرة"⁽²⁾.

فاعتماد صاحب الرحلة على اللغة الفصيحة لا يعني أبداً أنه لم يستعمل العامي، ذلك لأن "الكتابة بالعامية في الخطاب السردى أو توظيفها فيه قد يكون لغرض جمالي للوصول إلى واقعية الحدث وصدقه، وقد يكون مراعاة لحال المتكلم أو مناسبة لوضعية المتلقي"⁽³⁾، وإذا أخذنا بعين الاعتبار "أن لكل عصر لغته"⁽⁴⁾، فإن ذلك سوف يقودنا حتماً للتعامل مع اللغة في الخطاب الرحلى من مبدأ أولي يتبلور "في الإدراك العميق لرابطة اللغة والفكرة، وفي فهم انعكاس فلسفة الكاتب الحياتية

1- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، م، س، ص 145.

* - نرجح أن المؤلف يرمز بها إلى زوجه أم أولاده (زهراء).

2- الرحلة، ص 164.

3- محمد تحوشي، العامية في الخطاب السردى الجزائري، عبد المالك مرتاض، والسائح الحبيب كنموذجين، ص 79، 5/4، مجلة دراسات جزائرية، 2007.

4- د. محمد مصاييف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص 341، طح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

ونظرته للإنسان والمجتمع على بناء الكلام من عنده"⁽¹⁾، فاللغة تجسد فكر الكاتب وتعكس وعيه ونظرته لكل ما يحيط به، فهو (الكاتب) "يصور الحياة بمفهومها الشامل في نصه... الذي يحمله طابعاً مطابقاً للغة في الحياة"⁽²⁾، لذلك نلاحظ أن مؤلف الرحلة "يبالغ في إهمال الصناعة اللفظية، ولو أخل بالاعراب واستعمل العامي من الألفاظ"⁽³⁾، فكثيراً ما يورد ابن حمادوش ألفاظاً لا يلتزم فيها بقواعد الاعراب، فكأنه يتحدث لا يكتب، يقول مثلاً:

"وجملة سارميتي في هذه السفرة المباركة ثمانون ومائتا سلطان ذهباً، منها ثمانية وعشرون قرصاً واثنان وخمسون ومائتان لي"⁽⁴⁾.

لقد استعمل صاحب الرحلة كلمة "سارميتي"، وهي كلمة محلية يتضح لنا معناها من خلال السياق الذي وردت فيه، وهي تعني رأس مالي.

ويقول أيضاً في البيت العاشر من القصيدة التي هجا فيها أولاد مختار:

وَقُلْتُ لَهَاوُلَائِي سِيرُوا فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَنَالَ مُقْلَتَايَ مِنَ النَّوْمِ⁽⁵⁾
فالصواب هو أن يقول: لَهَاوُلَاءِ بَدَلَ لَهَاوُلَائِي.
كما يقول أيضاً:

"وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق، ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك فقدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك"⁽⁶⁾.

1- تشيتشرين، أ، ف: 1978، الأفكار والأسلوبية، تر: د. حياة شرارة، ص35، د/ط، وزارة الثقافة، بغداد، د/ت.

2- مرشد أحمد، المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف، ص 106، 107، ط1، دار القلم العربي، حلب، 1418هـ-1998.

3- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م، س، ص434.

4- الرحلة، ص32.

5- م، ن، ص72.

6- م، ن، ص115.

فالصواب هو أن يقول: فلما قدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك.

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الإخلال بقواعد الإعراب إلى جانب استعمال العامي من الألفاظ "يفسد اللغة ويضيعها فيجب مع توخي السهولة...، المحافظة على قواعد اللغة وروابطها"⁽¹⁾، لأن القول بضرورة البساطة والسهولة في التعبير "لا يعني أبداً أن نقاد المغرب العربي يدعون إلى استخدام العامية، فالبساطة تختلف عن العامية اختلافاً جوهرياً، لأنها لا تعني أكثر من السلاسة وعدم التعقيد والتكلف في التعبير، في حين أن العامية لهجة تختلف في كثير من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها عن الفصحى"⁽²⁾، ذلك لأن اللغة العربية الفصيحة حتى ولو كانت بسيطة تلتزم بقواعد وضوابط الإعراب.

فاستعمال ابن حمادوش للعامية في مضمون رحلته لا يعني أبداً أنه لم يوظف اللغة العربية الفصيحة، حيث يظهر ذلك بشكل واضح في مقاماته - كما سبق وأشرنا - حيث نلاحظ أنه انتقى ألفاظه بعناية، فجاءت موحية معبرة عما كان يريد الإفصاح عنه، فقد "نشأ في النثر أسلوب عصري بسيط لا يرى أصحابه حاجة إلى تنميق العبارة، والتأنق في التركيب، وإنما يجعلون همهم إيضاح المعنى وإيصاله إلى ذهن القارئ بسهولة"⁽³⁾، بحيث لا يجهد القارئ نفسه في البحث عن معنى النص الذي يقرأه، فكثيراً ما وجدنا ابن حمادوش يعتمد على مثل ذلك، يقول مثلاً: "نزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال، كرائها ستة عشر موزونة في كل شهر، فلقيت الشيخ أحمد البناني الفاسي عند باب داره

1- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، م، س، ص434.

2- محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، م، س، ص342.

3- جرجي زيدان، م، ن، ص434.

لأنني كنت أتيت له بأمانة* من الجزائر فدفعتها له وافترقنا⁽¹⁾.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا يقيناً أن لغة ابن حمادوش هي "لغة الزمان والمكان" ولغة المجتمع أي أنها لغة واقعية ولغة اجتماعية على حد تعبير المعاصرين، أو هي لغة الموروث الثقافي، ولغة المحيط أو البيئة الاجتماعية التي يحيا فيها⁽²⁾، و- كما سبق وأن أشرنا في المدخل - فلم يكن عصره منتعشا ثقافيا لأن الجزائر كانت خاضعة للحكم العثماني، ونحن نعلم أن "الأتراك لم يهتموا باللغة العربية الفصيحة، لذلك كانت معوقات نمو اللغة وانتشار الأدب في هذا العصر أقوى من المشجعات فالولاة كانوا لا يفقهون العربية ولا يذوقون أدبها"⁽³⁾، فجهلهم للغة العربية كان سبباً كافياً لعدم تشجيعهم للحركة الثقافية في الجزائر، إلا أن هذه المعوقات لم تقف حاجزاً أمام الأدباء والعلماء في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، بدليل الأعمال التي خلفوها لنا، وإن كان الضائع منها أكثر من الموجود في المكتبات ينتظر الدراسة والتحقيق من طرف الدارسين والمهتمين بمعرفة تاريخ الجزائر الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وفي ختام هذا الفصل نتوصل إلى أن السرد يخضع لعنصرين أساسيين يكونان مادته الخام وهما: "اللغة والرؤية"⁽⁴⁾ على أساس أن اللغة تمثل مواد البناء الأولية، والرؤية تتكفل برسم المخطط العام لشكل ذلك البناء، فإذا كانت تلك المواد سليمة ومن نوعية جيدة، ثم كانت خاضعة لمواصفات الاستعمال وكان المخطط العام

* - لم يكشف المؤلف عن هذه الأمانة التي قد تعني أنها هدية من عنده، وقد تعني أن غيره حمله إياها من الجزائر.

1- الرحلة، ص32.

2- د. العربي دحو، الأدب في المغرب العربي، من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية، م، س، ص120.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، م، س، ص172.

4- هي متعلقة بالتقنية المستخدمة لتقديم النص، يراجع حميد لحمداني، بنية النص السردية، م، س، ص46.

موضوعاً بعناية ودقة، أصبحت عوالم البناء جميلة تستحوذ على الأبواب، وإلاّ بات ذلك البناء عبارة عن كومة من الحجارة والاسمنت والحديد⁽¹⁾.

واستناداً إلى ذلك، فإن ابن حمادوش لم يلتزم بهذين العنصرين الأساسيين، فرغم أن عبارته فصيحة فإنه كثيراً ما يسوق الجملة سوقاً عامياً لا يخضع لقواعد الإعراب، ضف إلى ذلك أن الرحلة تفتقر إلى الوحدة العضوية – كما أشرنا سابقاً – ذلك أن المنهج الذي سار عليه ابن حمادوش يجعل عمله غير منسجم فطريقة عرضه للحوادث كثيراً ما يتخللها الانتقال والاستطراد.

ومع ذلك فنحن لا نقلل من أهمية الرحلة، فهي ستظل مصدراً لا غنى عنه للمهتمين بدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية في المجتمع الجزائري والمغربي خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

1- د. بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1986)، جماليات وإشكاليات الإبداع، ج2، ص82، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2001-2002.

الختانة

تعتبر رحلة ابن حمادوش جزءاً هاماً من تراث الجزائر والمغرب، لأنها كتبت في العهد العثماني، بالنظر إلى أن عدد كتب الرحلة الجزائرية ضئيل جداً في هذا العصر - لأن معظمها ضائع حسب علمي - فهي تزخر بالمعلومات الكثيرة سياسياً وفكرياً واجتماعياً واقتصادياً عن عصر كاتبها ومعاصريه، كما أنها مصدر هام عن حياة المؤلف نفسه.

وكاد النسيان يأتي على هذه الشخصية الهامة في تاريخنا الثقافي لو لا كتاباته التي جعلت الباحثين يهتمون به بعد وفاته، فقد عاش ابن حمادوش خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، وأسهم فيه برحلاته وتجاربه الطبية، وكان مسجلاً للأحداث المعاصرة، ومشاركاً فيها، وشاهدًا عليها، وكانت له رغم الركود الذي أصاب الحياة الثقافية تطلعات وآثار ثاقبة، وقد عاش حياة فقيرة عانى منها جسدياً وفكرياً، فكانت الضحية في ذلك هي كتبه ومذكراته التي لم يصلنا منها إلا القليل، فالرحلة التي بين أيدينا تمثل الجزء الثاني منها، على أن الجزء الأول ضائع - فيما أعلم - فلو عثرنا عليه لتمكنا من معرفة أمور أخرى كثيرة عن حياة ابن حمادوش وعصره.

إن الغاية التي نسعى إليها من خلال دراسة الخصائص السردية لرحلة ابن حمادوش، هي التقرب أكثر من هذا المنجز الرحلي للتعرف على شخص مؤلفها وعصره، ومعاصريه، ومترلته بينهم، فتبلورت لنا مجموعة من النتائج التالية:

فالفصل الأول الخاص بـ: (تطور فكر ابن حمادوش في الرحلة) كانت النتائج الأساسية فيه كما يلي:

- اهتمام ابن حمادوش بكل ما هو علمي من طب وصيدلة وفلك وحساب، في عصر سادت فيه الثقافة الأدبية والفقهية والتصوف وهذا ما يعرف بالشذوذ الفكري.
- جمع مؤلف الرحلة بين العلم والتجارة، فهو حين اهتم بالصيدلة ركب الأشربة وصنع المعاجين لبيعها، وهكذا زواج في شخصيته بين الرجل العالم والرجل التاجر.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ: (موضوعات الرحلة)، والتي وجدناها كثيرة، فكانت النتائج الأساسية فيه كمايلي:

- جمع ابن حمادوش بين النثر والشعر في طريقة تناوله لهذه الموضوعات.
- تحفل هذه الموضوعات بأخبار كثيرة عن العلماء والأدباء الذين لا نجد عنهم في غيرها سوى القليل مثل ابن عمار وابن ميمون، ولعل منهم بعض علماء المغرب أيضاً مثل الشيخ أحمد بن المبارك، والشيخ أحمد الورززي.
- ستظل الإجازات والعقود والقصص التي أوردها صاحب الرحلة مصدراً هاماً لدراسة الأدب والتاريخ وتراجم الرجال.

أما الفصل الثالث الموسوم بـ: (لغة السرد)، فنواصل فيه الكشف عن الخصائص السردية للرحلة، والمتمثلة في طريقة الحكى إلى جانب الوصف والحوار، واستعمال اللغة العربية الفصحى واللهجة العامية، واستناداً إلى تحليل هذه الفواصل السردية تتجلى لنا مجموعة من النتائج الأساسية:

- اعتمد المؤلف على عامل الزمن في سرد حوادثه والجمع بينها، فالزمن بالنسبة إلى الرحلة هو قلبها النابض حيث نجده يرتبط بالمتن ارتباطاً وثيقاً.
- كما يعمل الوصف على تحديد وتوجيه مسار السرد من خلال وصف الشخصيات والأماكن، وكل ما يشاهده ويلاحظه الرحالة عبر جولاته.
- عبر الحوار عن نفسية الشخصيات تعبيراً ملائماً كل الملائمة للمواقف التي عالجتها الرحلة، وهو قليل جداً، ومع ذلك أعطانا صورة واضحة عن شخصية ابن حمادوش الجريء الذي لا يهاب المناقشة، ولا يخاف لومة لائم.
- لا تدل اللغة الموظفة في الرحلة على أنها كانت فصيحة في كل المضمون، فكثيراً ما صادفتنا أثناء قراءتها الكثير من التراكيب العامية، كما نشعر أحياناً أنه يتحدث لا يكتب، لأنه في غالب الأحيان لا يلتزم بقواعد الإعراب.

ولعلنا بهذا نكون قد توصلنا إلى بعض الخصائص السردية التي تميزت بها رحلة
"لسان المقال"، وإلاّ فيبقى القصد النبيل والمسعى متواصل لنفس الهدف، والله الحمد
والشكر أولاً وأخيراً.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر:

- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 9، ط3، دار صادر، بيروت، 2004.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج3، ط1، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى الباوي الحلبي وأولاده، مصر، 1356هـ-1938م.
- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، د/ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.
- كمال الدين محمد بن موسى الدّميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، ط3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباوي الحلبي وأولاده، مصر، 1376هـ-1956م.

المراجع:

- إبراهيم السّامرائي، التطور اللغوي التاريخي، ط3، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
- إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، د/ط، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- أبو القاسم سعد القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.
- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007.

- أحلام عبد اللطيف حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة، قراءة لتيار الوعي في القصة السعودي (1970-1995)، ط¹، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004.
- أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، د/ط، مطبعة طربين، مصر، 1386هـ-1967.
- الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه، نور الدين عتر، ط¹، دار الكتب العلمية، مصر، 1395هـ-1975.
- بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1986)، جماليات وإشكاليات الإبداع، ج²، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2001-2002.
- تشيتشرين، أ، ف: 1978، الأفكار والأسلوبية، تر: د. حياة شرارة، د/ط، وزارة الثقافة، بغداد، د/ت.
- ثناء أنس الوجود، قراءات نقدية في القصة المعاصرة، د/ط، دار قباء، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج⁴، د/ط، موفم للنشر، لبنان، 1993.
- حسن مصطفى حسن، نباتات في الشعر العربي، ط¹، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1415هـ-1995م.
- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب - رحلات أمين الريحاني نموذجاً - د/ط، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، 1995.
- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط²، دار الأندلس، لبنان، 1983.

- حسين حمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط¹، منشورات الاختلاف، الجزائر 1428هـ - 2007.
- حسين محمد فهم، أدب الرحلات، د/ط، عالم المعرفة، الكويت، 1989.
- حميد آدم ثويني، فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية، ط¹، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 1427هـ - 2006.
- حميد حميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط³، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000.
- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج³، ط¹، دار الجيل، بيروت، 1985.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط³، بيروت، 1969م.
- داود غطاشة وحسين راضي، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، ط¹، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، الأردن، 2000.
- الزهار أحمد الشريف، مذكرات الشريف الزهار، نشر أحمد توفيق المدني، د/ط، الجزائر، 1977.
- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، ط¹، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، ط⁴، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.
- الشريشي أحمد، شرح مقامات الحريري، ج¹، د/ط، مطبعة المنيرة، القاهرة، 1983.
- صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، ط¹، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003.

- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط¹، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوانجمان، 1996.
- عبد السلام عبد الحكيم العبد، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث، د/ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989.
- عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، ناحية التحصيل، ط¹، دار المعارف، 1986.
- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ط¹، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003.
- عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ط¹، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، 1406هـ-1986م.
- عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج¹، ط²، بيروت، 1961.
- عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، د/ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.
- عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د/ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005.
- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، د/ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، د/ط، دار الثقافة، القاهرة، 1976.

- عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية، بين النظرية والتطبيق، د/ط، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
- العربي دحو ، الأدب العربي في المغرب العربي، من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية (30هـ-230)، د/ط، دار الكتاب العربي، الجزائر 2007.
- العربي دحو، مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، د/ط، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، 1406هـ- 1986.
- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، د/ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.
- علي عشري زايد ،استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د/ط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1417هـ-1997.
- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما)، د/ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ماي 1995.
- عمر محمد التومي الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، د/ط، ليبيا، د/ت.
- عمر موسى باشا، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، د/ط، مطبعة الإحسان، دمشق، 1399هـ-1979.
- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريجانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- العيد يمى، في معرفة النص، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1983.
- فوزي سعد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، د/ط، دار المعرفة الجامعية، 2000.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر ،تحقيق، كمال مصطفى، د/ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1963.

- محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، 1409هـ-1989.
- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، د/ط، دار الثقافة، المغرب، 1406هـ-1985.
- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، تقديم وتحقيق، الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1392هـ-1972.
- محمد داود، تاريخ تطوان، ط2، القسم الثاني، المجلد الثاني، دار كريماديس، تطوان، 1382هـ-1963م.
- محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، د/ط، منشأة المعارف بالإسكندرية، د/ت.
- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط1، دار الثقافة، لبنان، 1973.
- محمد مسعود جبران، فنون النشر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، المجلد الثاني، ط1، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2004.
- محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- محمد يعقوبي، الوجيز في الفلسفة، ط3، مطبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.
- محمد يوسف نجم، فن القصة، د/ط، دار الثقافة، بيروت، 1963.

- مرشد أحمد، المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف، ط₁، دار القلم العربي، حلب، 1418هـ-1998.
- مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، ط₃، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
- موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط₁، دار الكندي، الأردن، 2003.
- ناصر الدين سعيدوني، الحياة الاقتصادية بعناية أثناء العهد العثماني، العدد 34، السنة الخامسة، مجلة الأصالة، الجزائر، جمادى الثانية 1396هـ-يونيو 1976.
- نبيلة إبراهيم، فن القصة (في النظرية والتطبيق)، د/ط، دار قباء، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د/ت.

فهرس المعاجم والموسوعات:

- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، المجلد السابع، ط₁، دار الجيل، بيروت، 1426هـ-2005.
- جبران مسعود، الرائد: معجم ألفبائي في اللغة والأعلام، ط₃، دار العلم للملايين، تموز/يوليو، بيروت، 2005.
- شاهر ذيب أبو شريخ، موسوعة عباقرة في الإسلام، ط₁، دار الصفاء للنشر والتوزيع عمان، 1424هـ-2004.
- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، ط₁، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوانجمان، 2003.

فهرس المجلات:

- خير الله عصار، العلم التجريبي، مجلة الثقافة (مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر)، السنة العاشرة، العدد 58، شعبان رمضان 1400هـ، يوليو آب، 1980.

- العابدي خضراء، توظيف التراث الشعبي في الخطاب السردي الجزائري عند الطاهر وطار، دراسات جزائرية 5/4، دورية محكمة يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر جامعة وهران، 2007.
- عبد القادر الشاوي، إشكالية الرؤية السردية (السارد أو الصوت السردية)، ع2، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، 1987، 1988.
- كمال الرياحي، كتاب عمان 1، حوارات ثقافية في الرواية والنقد والقصة والفلسفة، حوار مع الدكتور عبد المالك مرتاض، ع112، الرأي مطابع المؤسسة الصحافية الأردنية، تونس، 2003.
- محمد تحرشي، العامية في الخطاب السردية الجزائري، عبد المالك مرتاض، والسائح الحبيب كنموذجين، 5/4، مجلة دراسات جزائرية، 2007.

الرسائل الجامعية:

- محمذن بن أحمد بن المحبوبي، أدب الرحلة في بلاد شنقيط، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، الرباط، 1994-1995.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضوع:	الصفحة
شكر وعرفان	
المقدمة	أ
المدخل	
مفهوم الرحلة بدايةً وتطوراً	01
ابن حمادوش وعصره	06
مضمون الرحلة	14
الفصل الأول: تطور فكر ابن حمادوش في الرحلة	18
الفكر الديني	19
الفكر العلمي	27
الفكر التجاري	38
الفصل الثاني: موضوعات الرحلة	
أ- فنون النشر	45
المقامات	45
الرسائل	51
التقاريط	52
عقود الزواج	55
الإجازة	57
القصص	59

62	ب- أغراض الشعر
63	المدح
65	الحنين إلى الأهل والوطن
69	الفخر والهجاء
72	الرثاء
73	الألغاز
76	الفصل الثالث: لغة السرد
82	طريقة الحكيم
85	الوصف
96	الحوار
99	الفصحى والعامية
106	الخاتمة
109	قائمة المصادر والمراجع
117	فهرس المحتويات

عنوان المذكرة: الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري.

الكلمات المفتاحية: ابن حمادوش، الرحلة، الموضوعات، السرد، الخصائص، الجزائر، المغرب، الفقر، الزوجة، الأولاد، العلم، التجارة، الملاحظة، التجربة، الوصف، الفصحى، العامية، الأماكن، العلماء، الكتب.

الملخص:

تعتبر الرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم إذ تتوفر على مادة وفيرة ومتنوعة، فالرَّحالة وهو يتنقل من مكان إلى آخر يقوم بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، ولا يقتصر بذلك على مجال معين، بل يهتم بكل المجالات، فهو عندما يتحدث عن المجتمع الذي حل به يعطينا صورة واضحة عنه، بحيث يتكلم عن سكانه فيصف لنا لباسهم وطعامهم، كما نجده أيضاً يصف عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة احتفالاتهم... كما يتحدث كذلك عن الاقتصاد والبيئة الجغرافية والطبيعية، للإضافة إلى ذلك يتكلم عن العلماء والأدباء الذين التقى بهم أو الذين سمع عنهم في ذلك المجتمع، لهذا فالرحلات هي بمثابة سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، فهي تتضمن مادة دسمة للباحثين كل حسب اختصاصه.

ونظراً لكوني أنتسب إلى مشروع الأدب الرحلي من جهة، ونظراً لأهمية هذه الرحلات من جهة أخرى، فقد وجهت بحثي لدراسة رحلة من هذه الرحلات ألا وهي رحلة ابن حمادوش الجزائري "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، من خلال الوقوف على الخصائص السردية لها متجاوزين الطرح الكلاسيكي لأدب الرحلة كونه مجرد وثيقة تاريخية وجغرافية فحسب.

عنوان المذكرة: الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري.
الكلمات المفتاحية: ابن حمادوش، الرحلة، الموضوعات، السرد، الخصائص،
الجزائر، المغرب، الفقر، الزوجة، الأولاد، العلم، التجارة، الملاحظة، التجربة، الوصف،
الفصحى، العامية، الأماكن، العلماء، الكتب.
الملخص:

تعتبر الرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم إذ تتوفر على مادة وفيرة ومتنوعة، فالرَّحالة وهو يتنقل من مكان إلى آخر يقوم بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، ولا يقتصر بذلك على مجال معين، بل يهتم بكل المجالات، فهو عندما يتحدث عن المجتمع الذي حل به يعطينا صورة واضحة عنه، بحيث يتكلم عن سكانه فيصف لنا لباسهم وطعامهم، كما نجده أيضاً يصف عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة احتفالاتهم... كما يتحدث كذلك عن الاقتصاد والبيئة الجغرافية والطبيعية، للإضافة إلى ذلك يتكلم عن العلماء والأدباء الذين التقى بهم أو الذين سمع عنهم في ذلك المجتمع، لهذا فالرحلات هي بمثابة سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، فهي تتضمن مادة دسمة للباحثين كل حسب اختصاصه.

ونظراً لكوني أنتسب إلى مشروع الأدب الرحلي من جهة، ونظراً لأهمية هذه الرحلات من جهة أخرى، فقد وجهت بحثي لدراسة رحلة من هذه الرحلات ألا وهي رحلة ابن حمادوش الجزائري "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، من خلال الوقوف على الخصائص السردية لها متجاوزين الطرح الكلاسيكي لأدب الرحلة كونه مجرد وثيقة تاريخية وجغرافية فحسب.